رؤية آن بلنت للمرأة النجدية

د. علي عفيفي علي غازي
أكاديمي وصحفي

المرأة هي اللبنة الأولى في بناء الفلك الأسري، وهي ربته وقوامه، والأسرة هي النواة الأولى في المجتمع، وبالتالي يتوقف على المرأة المجتمع كله، فإن صلحت صلح المجتمع، وعلى هذا فهي من أعظم العوامل المؤثرة في حياة البشرية. وخطورة شأن المرأة في الاجتماع الإنساني أمرًا تواضع عليه البشر أيًا كانت درجتهم في سُلم الحضارة، لأنه من أمور البداهة، وحكم من أحكام الفطرة، جاءت به الشرائع السماوية مع كل نبي ورسول لتأصله، وتحدد اتجاهه، ومساره الصحيح، الذي يليق بالإنسان، وغاياته في الوجود.

تأرجح وضع المرأة في أطوار عديدة منذ أقدم العصور، وفي الجملة كان وضعًا مثيرًا للشفقة لما حملته من امتهان، وتقليل من شأنها، فلم تكن المرأة في العصور القديمة أقل أثرًا منها في عصور ما بعد الحداثة، فالقبائل البدائية الرحالة، والجماعات التي عاشت على الصيد والقنص، والعشائر التي اتخذت من سلاحها وعضلاتها وسيلة للعيش والحياة، والضرب في مناكب الأرض، كل هؤلاء يدينون للمرأة بكثير من أمور دنياهم، فقد شاركت المرأة الرجل منذ أقدم العصور في العمل، وأخذت بضلع في كل ما يتعلق بالحياة القبلية، وحياة الأسرة، وكانت من العوامل الأولية في انتشار جماعات الإنسان في بقاع الأرض، لولا فضلها في العمل، وتدبيرها شؤون الأسرة؛ لتعذر على الرجل وحده أن يدب فيها، أو يكشف عنها، فكانت للرجل سلاحًا من أمضى أسلحته، ودرعًا من أقوى دروعه، وحافزًا من أولى حوافزه، وكفاها أن تكون أول من فكر في فلاحة الأرض، وأول من اكتشف كيف تنبت الحبة، فكان هذا بداية الحضارة الزراعية.

وتابعت المرأة خطى التطور، الذي لازم الرجل في جهاده الشاق، فإذا كان الرجل قد ضحى بالكثير من جهده العضلي والعقلي في بناء دعائم الحضارة، وتوثيق روابط المجتمع، والكشف عن أسرار المجاهيل، فقد ضحت المرأة بجهد نفسي، وأسرفت في الإنفاق من روحها وعواطفها وانفعالاتها، ولولا قدرة المرأة العجيبة على اختيار مواقف: الكر حيث يجدي، والفر حيث يفيد، والإقدام حيث النصر، والدفاع حيث الضرورة، مدفوعة بغريزتها الطبيعية، لظل الإنسان؛ ذلك الكائن البدائي في جحوره المظلمة، وكهوفه المرطوبة، وغاباته الموحشة، حيوانًا لا يفرقه عن بقية الحيوانات غير انتصاب القامة، فإذا كانت غريزة الرجل موجهة إلى العمل للحاضر، فإن غريزة المرأة تعمل للمستقبل.

وإذا قلبنا صفحات التاريخ في العصور الوسطى، حيث كان المجتمع الغربي يدين بالكنسية، وتسيطر عليه الشعائر الدينية، والمفاهيم المسيحية، لوجدنا أن المرأة الأوروبية كانت غارقة في بحار الجهل، فلم تكن واضحة الكيان، بل كانت ضحية الأزواج؛ لضعفها وقلة قدرها، ولما أعلنت الثورة الفرنسية، في نهاية القرن الثامن عشر، حقوق الإنسان في الحرية والإخاء والمساواة؛ لم تشمل المرأة بالنصيب الحقيقي في هذه القوانين، فقد اعتبر القانون الفرنسي القاصرات هم: الصبي والمرأة، وفي إنجلترا كانت النساء، حتى عام 1850، غير معدودات من المواطنين، ولم يكن لهن حق التملك، وعانت المرأة الغربية من العنف الزوجي، معاناة شديدة مع تقدم الحضارة، والمدنية، والحداثة، والعولمة.

لكن الوضع كان جد مختلف في الإسلام، فبنوره، وبهدي نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، منحها الحقوق والواجبات، والمكانة العالية العظيمة، لأنها محور البيت، ومربية الأجيال، فقد كفل المساواة بين الرجل والمرأة في الجنس والحقوق الإنسانية، ولم يقرر التفاضل إلا في بعض الأمور الخاصة بالاستعداد والخبرة والتبعة، مما لا يؤثر على حقيقة الوضع الإنساني للجنسيين، فالرجل والمرأة من الناحية الدينية والروحية متساويان. قال تعالى "فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى بعضكم من بعض" (آل عمران: آية 195)، فأعطاها الإسلام الحق في التعليم، وجعلها مسؤولة عن الزوج والأولاد والبيت، ومنحها العفة حتى تجد الزوج، وفرض على زوجها معاشرتها بالمعروف، وجعلها له البيت الهادئ الساكن، وحصنها وأعفها عن الفتن، وجعلها مصدر الحب والحنان لزوجها ولأولادها، وبالتالي تسود القيم المجتمع، وتوجد الأسر المترابطة.

ولو قارنا بين الحقوق التي مارستها المرأة في ظل الإسلام، والتي لم تكن، من قبل، معروفة، لعرفنا الفرق الشاسع بين وضعها قبل الإسلام وبعده، لأنها كانت في الجاهلية مهانة ووضيعة، وكان العربي يعتبرها مصدر عار وذل، ويسود وجهه إذا بشر بمولودة أنثى، فلما جاء العهد النبوي أحدث ثورة قانونية واجتماعية؛ جعلت للمرأة مكانة لم يعرفها العرب من قبل، فجعلها ندًا للرجل، وشريكًا له في الحياة الاجتماعية، ولعبت المرأة أدوارًا في الجهاد؛ فالنسوة كن يخرجن مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان دور المرأة آنذاك ينحصر في التمريض، وسقيا المجاهدين العطشى، وفي بعض الحالات مارست الحرب الحقيقية شأنها شأن الرجل.

أما بالنسبة للغرب، أو ذاك "الآخر" المرغوب المرهوب دائمًا، والمكروه أحيانًا، فقد ألهبت كنوز "الحرملك" الشرقي خياله، وسعى وراء غموضها الساحر، واخترق أسوارها لينهل من الملذات ما ينهله نظيره الشرقي، ثم عاد إلى أرضه، وصور تلك المقتنيات متجلية في إبداعاته، بعد أن أضفى عليها أبعادًا أسطورية، واتسعت تلك الأبعاد في مخيلة الفرد الغربي، لتحوي في آفاقها ذلك الشرق القصي برمته، الذي ظلت كنوزه محجوبة عنه حتى تم اختراقها وتملكها، وارتبطت تلك الصورة الأسطورية بالمرأة الشرقية، وترسخت في الوجدان، واللاوعي الغربي، وصارت نمطًا لكل ما هو عربي وإسلامي، وارتبطت بما يروج عن دونية المكان والإنسان، وتخلفه وعداوة موروثاته الدينية والمجتمعية للغرب الليبرالي المتقدم، بل أصبحت هذه الصورة سلاحًا ضد كل من يحاول إثبات زيف الأسطورة، التي أراد لها الغرب أن تظل دومًا راسخة تدعم مسعاه للهيمنة والاستعمار.

وساهم الرحالة بدور كبير في رسم تلك الصورة، أحيانًا عن قصد لأجل استمرار تشويه صورة المرأة العربية المسلمة، وأحيانًا أخرى عن جهل بالعادات والتقاليد الشرقية الإسلامية، فخرجت صورة المرأة الشرقية عامة، والعربية خاصة، مشوهة، مقطوعة عن المجتمع الذي تعيش فيه، فقصرت دور المرأة فيه، على تحقيق ملذات وشهوات الرجل، لتأكيد الصورة والأسطورة التي تقدم الشرق شهوانيًا، عنيفًا، همجيًا، غير قابل لاستيعاب الحضارة الغربية، والتي لعبت ترجمات كتاب "ألف ليلة ولية" فيها دورًا كبيرًا.

وبما أن الرحالة قد جُبلوا على المبالغة، وعدم تحري الحقائق، والبحث والتنقيب الدقيق عنها، رغم تكبدهم مشاق السفر، غير هيابين، ولا مبالين بالمخاطرة بأنفسهم ونفائسهم، ولا يألون جهدًا في السعي وراء ضالتهم المنشودة، ومع حرصهم على تدوين الحقائق، فإنهم يخطئون في بعض ما يكتبون، ربما بسبب مبالغة مصدر معلوماتهم، حتى جاءت أضعاف الأضعاف من الحقيقة، وقد يعذرهم المنصف العارف بعادات الشرقيين وأخلاقهم، لأن ثمة سرًا لا يقدر أن يطلع عليه غير الشرقي نفسه، فإذا سأل الرحالة الذي لا يعرف من الشرقيين إلا صورهم وأسماءهم وأزياءهم سؤالا، يوجهه إلى العربي مستفسرًا عن عمل رآه يعمله، فلا يجيبه إلا بعكس ما سأله؛ ظنًا منه أنه إذا أوهمه بالجواب، وأضله بالكلام، لا يحصل منه على نتيجة، فيرجع حينئذ بخفي حنين، فإذا سمع الرحالة هذا الجواب، دونه في ديوان رحلته، وجعله غايته، وأخذ بعدئذ يعلق عليه، ويفسر ويوضح له، ظنًا منه أن ما روي له ليس إلا الصحيح، لما تعوده من صدق اللهجة.

وهدفنا هنا هو تقديم رؤية الرحالة البريطانية الليدي آن بلنت، للمرأة في نجد، كنموذج للرحالة الغربي المعتدل في رؤيته، نجح في اختراق ذلك المكان المغلق، مكمن الأسرار لدى الغربي، ومنهل الملذات والمتع لدى الشرقي، من خلال رحلتها المعنونة "رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية"، والمنشورة عن دار المدى للثقافة والنشر بدمشق، سنة 2005، مكتفين بالإشارة عقب الاقتباس لرقم الصفحة بين قوسين. لنرصد بعينيها حقيقة ما رأته، ولمسته، ووصفته، بعيدًا عن نظرتها التعصبية التهكمية اللاذعة، التي تبدو في بعض الكلمات من سبيل: "الحكم الاستبدادي"، و"السلطة العليا"، واصفة الدور الذي يمارسه الرجل من القوامة في المجتمع العربي، كما سنرى خلال مطالعتنا للأسطر القليلة القادمة.

والليدي آن بلنت Ann Blunt هي حفيدة لورد بيرون Lord Byron، وزوجة الشاعر ولفريد سكاون بلنت Wilfrid Scawen Blunt، جمعهما الترحال كأديبين يعشقان الحرية، كما جمعتهما هواية الدراسات الشرقية، فتحولت الهوايات المشتركة إلى زواج، دفعهما للترحال في بوادي الشام والجزيرة العربية في رحلتين متتاليتين، كانت بلنت فيهما أول امرأة إنجليزية تعتبر البدو من بين أصدقائها، فقد أولعت بحب الطابع البدوي، حيث بدا لها العرب بملابسهم يمتطون صهوات جيادهم الجميلة لوحة فاتنة. رافقت زوجها شتاء سنة 1877-1878 في رحلة بمنطقة الشرق الأدنى من حلب إلى بغداد، عبر الجزيرة الفراتية وبادية الشام، مخترقة ديرة قبيلتي عنزة وشمر، نشرتها في كتاب بعنوان "عشائر بدو الفرات The Bedouin Tribes of The Euphrates"، ثم في شتاء عام 1878-1879 رافقته في رحلة أخرى من دمشق إلى حائل، في شمال نجد، ومنطقة جبل شمر، كأول أوربيين، غير متنكرين، يدخلان مدينة حائل في القرن التاسع عشر، وهي الرحلة التي كتبت أحداثها في كتاب آخر بعنوان " A Pilgrimage to Nejd" وهو الذي بين أيدينا ترجمته، ونرصد من خلاله رؤيتها للمرأة النجدية.

ذهبت ليدي آن بلنت، وزوجها ويلفريد إلى حائل، على عكس كل الذين سبقوهما إليها، فقد دخلا حائل كنبلاء بريطانيين في زيارة عائلات عربية نبيلة، وبينما كانت بلنت خجولة، صغيرة الحجم، تتكلم العربية الفصحى، مما جعل الناس لا يفهمونها، وهو أمر اعترفت به قائلة: "إن العربية في حائل كانت مختلفة عن أية لهجة سمعناها من قبل" (ص 250)، بينما كان زوجها الضخم الجسم يتكلم العربية باللهجة العامية، وفي حائل استقبلا استقبالا يحفه التبجيل والتكريم، فقد استقبلهما الأمير محمد بن الرشيد، الذي تقلد الحكم في إمارة جبل شمر، والذي طبق صيته الآفاق بسطوته وبطشه البالغين، فكانت وزوجها ثالث الرحالين الغربيين الذين زاروا حائل بعد وليم بالجريف عام 1862، وتشارلز داوتي عام 1877. وبقيت آن وزوجها أسبوعين في حائل، ثم غادراها مع قافلة الحجاج الإيرانيين العائدين إلى بلادهم، وكتبت بلنت عن حائل تقول: "بالرغم من سحرها وسكانها الممتعين باتت سجنًا لنا". (ص 310).

ولم تكن مهمة بلنت وزوجها في الجزيرة العربية مهمة إمبريالية، كما أنه لم تدعمهما جمعية بريطانية، بأي شكل، ورغم ذلك أكدت بلنت بين سطور كتابها على انتمائها ومشايعتها للإمبراطورية البريطانية، وتقدم أجزاء الكتاب، وصفًا للعرب من وجهة نظر بريطانية خالصة، وليس من وجهة نظر موضوعية مستقلة من مراقب محايد، إلا أننا يمكن أن نصفها بالمعتدلة، فقد تضمنت كتاباتها بجانب الطبيعة السيئة في الناس، الجوانب الإيجابية فيهم، وهذه النظرة تعتبر مزيجًا من رؤيتها الشخصية عن العرب، ووصفها الموضوعي لجغرافية أرضهم.

ولا توحي أفكار بلنت عن المرأة العربية بأي فهم متعمق للثقافة العربية، والقيم الإسلامية، فكانت تعتقد دومًا أن المرأة العربية جارية لزوجها، متأثرة بالفكرة التي شاعت إبان العصر الفيكتوري عن الخلاعة الجنسية للمرأة العربية، بما قرأته في حواشي ترجمات كتاب ألف ليلة ولية عن المرأة الشرقية، تلك الكتابات التي تمثلها شيئًا مملوكًا، وأداة جنسية لا ترقى إلى منزلة الزوجة أبدًا، علاوة على النظرة

آن بلنت

التقليدية للمرأة الشرقية كمخلوق وضيع، فقد كانت ترى أن المرأة العربية وضيعة من ناحيتين: كونها امرأة، وكونها شرقية، فالمرأة العربية، التي تخفق، من وجهة نظرها، في إرضاء الزوج تستبدل فورًا كما يستبدل الخدم، رغم ذلك لا نعدم في كتابها مناصرتها للمرأة العربية، والدفاع عنها في بعض المواضع.

رغم إشارة كثير من الرحالة إلى أن المرأة البدوية سافرة مع غطاء الشعر التقليدي، وأنها تخالط الرجل في حرية تامة، وتسافر وحدها لا يمنعها من ذلك سوى شرط الأمان في الطريق، وتمارس دور كبير في القبيلة، فإن الليدي آن بلنت تستثني النساء في نجد من هذه القاعدة، فهن متنقبات، ويسمح فقط لشخص من أقارب العريس في حالة الخطوبة برؤية المخطوبة، فتقول: "عند آل العروق هنا تبقى الزوجات والبنات متنقبات، وهي عادة أهل نجد، التي تختلف فيها عن البدو، ولكن في المناسبات الهامة كترتيب للزواج، يُسمح لشخص من الأقارب برؤية ما يحدث، ونقل الأخبار". (ص 168، 169).

وخلافًا لرحالة العصر الفيكتوري، كانت بلنت متعاطفة مع الإسلام، ومعتبرة أنه دين سماوي يعمل لخير الإنسانية، ولذا كان موقفها من العرب أشد سماحة من موقف مواطنيها كتاب الرحلات، فقد رأت أن العرب يناظرون مواطنيها من الأرستقراطيين، وأنهم نبلاء الصحراء، فكانت الاستثناء الذي لم يبد العداء الأوروبي الموروث للشرق، والخوف منه، المقارنة بين العائلتين، ولحسن حظي، بعد رؤيتي لعمشه وهدوشة ولولية وعطوة (زوجات محمد بن الرشيد)، أستطيع القول إنهن الأجمل بما فيهن تلك المسكينة المنبوذة عطوة. كان يُظهر الضيق كلما صنفت عطوة مع الأخريات ويقول: "آه، عطوة أنا لا أريدها، إنها لا تساوي شيئًا". (ص 265).

وتواصل تعليقها قائلة: "أعترف بأنني أُحرجت من خضوعي لامتحان إبراز فضائل جوزة وتركية في حضور زوجات محمد، اللواتي كن يستمعن بعيون واسعة وباهتمام شديد. وقد زاد حرجي بعد ذهاب الأمير، عندما رشقتني عمشه بدورها بوابل من الأسئلة. فطوال فترة بقائه واصل الأمير استفهاماته، خصوصًا عن تركية، إلى أن فقدت صبري وسألته: "ولكن لم تسأل كل هذه الأسئلة؟ لم تريد أم تسمع عن تركية؟ ما الذي يعنيك من كونها جميلة أو لطيفة؟ أنك لم ترها من قبل، ويحتمل ألا تراها أبدًا!". فأجاب: "لا، أنا لم أرها، ولكني أود معرفة شيء عنها، وأن أسمع رأيك بها، ربما أرغب يومًا في الزواج منها، قد آخذها بدلا من هذه الفتاة الصغيرة"، وأشار إلى عطوة "التي لن تصلح أبدًا لي، فهي بلا قيمة، بلا قيمة". كانت المسكينة عطوة واقفة تستمع، ولكن على ما أعتقد، بلا مبالاة، إذ نظرت إلى وجهها، فلم تبد عليه أية ظلال من الأسف أو الخيبة". (ص 265، 266).

وما أن غادر الأمير محمد بن الرشيد القهوة، التي استقبلت فيها بلنت، إلا وأمطرتها بالأسئلة عمشة، زوجته التي تصفها بأنها "الوحيدة التي تكن مشاعر حب تجاهه"، حيث تقول: "سألتني وهي تحبس أنفاسها: "من هي تركية هذه؟"، وفاجأتني بعدم معرفتها بها، بالرغم من معرفة من هو الحميدي ابن مشهور، شرحت لها أن أخته جوزة كانت تزوجت من سطام بن شعلان، وحدثتها عن قصة الزواج الثاني لسطام، وكيف صممت جوزة على التخلص من غريمتها، فنجحت بإقلاق راحتها إلى أن رحلت، ورفضت العودة منذ ذلك الحين. كانت عمشه تهتم بالتأكيد بأمر ابن رشيد، وفكرت بأنها قد خشيت أن يدب الخلاف بدخول عنصر جديد إلى العائلة. ولكن مكانتها لم تكن لتتأثر بمجيء زوجة جديدة، وبسبب أنها أخت لحمود فمنزلتها وسلطتها محفوظتان، فالأمير بضميره المذنب لم يكن ليجرؤ على التنكيل بها أو بحمود، إذ كان يدين لهما ولدعمهما له بالكثير". (ص 266).

وانتقلت آن بلنت إلى منزل آخر في نجد، يمثل نموذج آخر لمجتمع "الحرم"، ومخادع النسوة، وهو القسم المخصص للمرأة، وتخصيص مكان للحريم فكرة قديمة، صارت جزءًا من حياة العربي المسلم، كما أرادها الرسول صلى الله عليه وسلم، ففي هذا المكان تضمن الزوجات الأربع للرجل وجواريه وبناته الأمان، وقد تمتع مجتمع الحريم بالسحر والجاذبية لكونه كان مغلقًا، قبل دخول بلنت إليه، أمام كل أجنبي، وتواصل حديثها ووصفها: "غادرت منزل عمشه، وذهبت برفقة أمة سوداء إلى منزل آخر داخل القصر، ألا وهو منزل زوجة حمود (ابن عم محمد بن رشيد أمير حائل) بنية بنت متعب، وهناك شاهدت أختها رقية المتزوجة بماجد بن حمود، كما التقيت بزوجة أخرى لحمود لم تكن تعتبر ندًا، فلدى سؤالي عن نسبها قيل لي: "إنها ابنة شمري"، فسألت: "ابنة من؟"، فقيل "واحد"، قلت "ولكن من هو؟"، "واحد، فلان من حائل من البلد"، وبالكاد اعتبرت فردًا من العائلة. وكانت الزوجتان الثالثة والرابعة من الأقارب، إحداهما ابنة طلال، والأخرى ابنة سليمان خال حمود. كانت النساء الأربعة فتيات، أما أم ماجد، والتي لم أسمع اسمها يُذكر، فكانت قد توفيت منذ عدة سنوات، كان لحمود كالأمير، عدد من الزوجات، تمامًا كما يسمح به القانون والشرع، وإن أية واحدة تموت أو تخفق في تحقيق الرضا تستبدل فورًا كما يستبدل الخدم.

استقبلتني بنية عند الباب، ومررنا بغرفة انتظار أو دهليز إلى قهوتها، وبعد بضعة لحظات، ولدهشتي الشديدة، أحضرت ثلاث أرائك، ووضعت في غرفة الانتظار، حيث جلست مع بنية، والزوجة الثانية، نشرب الشاي بفناجين مع صحون، وملاعق للشاي. كانت الفناجين ممتلئة إلى حافتها، وفاض الشاي بوضع قطع السكر، لكنه كان جيدًا على كل حال، ثم أحضرت كومة من الليمون الحلو، وأخذت الإماء تقشر الفواكه وتقسمها إلى أرباع ثم تمررها إلينا.

بعد تلك الوجبة الخفيفة، رغبت بنية بأن أرى غرفتها في الأعلى، التي كان يصعد إليها، كشقة عمشه الخاصة، بواسطة درج مفروش بالسجاد يبدأ من القهوة، كانت الغرفة مبنية بنفس الطراز، مع عمودين يدعمان عوارض السقف الخشبية، إلا أنها لم تكن لها إطلالة على الخارج، وكانت مضاءة بفتحتين صغيرتين في أعلى الجدار، ومع ذلك كانت أكثر إمتاعًا من غرفة عمشه، إذ كانت جدرانها مزينة بالأسلحة. (ص 266، 267).

وتقدم آن بلنت وصفًا آخر للضيافة في مخدع النساء، فذكرت أنها أثناء تواجدها فيه قد "جاءت بعض الإماء بصفحة وضعنها أمامي، وكان عليها الفطور الثقيل الاعتيادي: صحن كبير من الأرز في الوسط، وحوله أوعية صغيرة حوت أنواع مختلفة من المرق الدسم ليؤكل مع الأرز. تعللت بنقص الشهية، وقلت بأنني قد تناولت هذا الصباح أحد الأرانب البرية، التي أرسلها الأمير. نُصحت بالطبع أن أكل المزيد، وأجبرت على المحاولة، ولكن لحسن الحظ كانت هناك أفواه كثيرة جائعة، وأعين تواقة تراقب الصحون لتمرر إليها، لذلك نجوت بسهولة". (ص 263).

أما عن وظيفة زوجات شيوخ القبائل، والأمراء، فهي الجلوس فقط، والحديث في أحاديث وصفتها آن بلنت بأنها سقيمة ومملة، وقدمت نموذجًا لها متمثل في الحوار التالي:

"أنا: ماذا تعملن طوال النهار؟ زهوة: نعيش في القصر.

أنا: ألا تخرجن أبدًا؟ زهوة: لا، بل نبقى دائمًا في القصر.

أنا: إذا لا تركبن الخيل أبدًا كما نفعل نحن؟ (كنت أسأل دائمًا عن ركوب الخيل لأرى أثر ذلك). زهوة: لا، فنحن لا نملك أفراسًا لنركبها.

أنا: يا للخسارة، ألا تخرجن إلى البر خارج حائل، أعني الصحراء؟ زهوة: لا، بالطبع لا.

أنا: ولكن ماذا تفعلن لتمضية الوقت؟ زهوة: لا نفعل أي شيء، هنا قاطعنا صبي أسود قائلا: "يا سيدتي، هؤلاء بنات الشيوخ، إنهن لا يقمن بأي عمل على الإطلاق، هل تفهمين؟".

أنا: أفهم ذلك تمامًا، ولكن بالإمكان تسلية النفس دون عمل، ثم التفت إلى زهوة وأضفت: ألا تتفرجين حتى على الخيول؟ زهوة: لا نحن لا نفعل شيئًا.

أنا: كنت مت لو لم أكن أفعل شيئًا. فعندما أكون في وطني يكون أول ما أفعله في الصباح هو رؤية خيولي، لكن كيف تستطعن أنتن قضاء حياتكن هكذا؟ زهوة: نجلس فحسب. (ص 270، 271).

ثم تحاول تبرير ذلك الكسل الذي تعانيه المرأة النجدية قائلة: "هكذا كان مبلغ السرور لدى الحريم هنا، هو الجلوس بكسل مطلق، يبدو الأمر غريبًا، إذ إن رجالهن نشيطون ومغامرون، بينما تقنع النساء بالملل، ولكن هذا باعتقادي هو نتيجة الحكم الاستبدادي". (ص 271).

وبينما كانت آن بلنت برفقة زوجها ويلفرد بلنت في طريقها إلى نجد، خرج عليهما جماعة من الغزاة، واعتدوا عليها، ظانين أنها رجل، ولكنهم عندما اكتشفوا حقيقة أمرها بادروا بالاعتذار، لأن الشهامة العربية تقتضي ألا يعتدي البدوي على امرأة، فإن منزلتها لديهم محفوظة مكرمة، فقالت: "لقد راق لنا هؤلاء الفتية الرويليون، فبالرغم من سلوكهم الفظ معنا رأينا عليهم سيماء النبل. لكم شعروا بالخزي لطعنهم إياي بالرمح، فأفاضوا في الاعتذار، هذا بأنهم لم يروا سوى شخص يرتدي عباءة، فلم يشكوا لحظة في أن لابسها كان رجلا، والواقع أن خطأهم لم يكن بمستغرب، لأن أنفاسهم كانت منقطعة، وأعصابهم مشدودة من جراء الجريان السريع، لدرجة أنهم لم يكترثوا سوى بضالتهم المنشودة، أي الفرسين، لكنني أظن مع ذلك أن خسارة الفرسين كانت لهما مصدر أسف أعظم من أسفهم للمعاملة الفظة التي قابلونا بها". (ص 143).

ملابس المرأة النجدية

تمتلك المرأة البدوية عامة، والنجدية خاصة، عناصر الجمال المتكاملة في ملابسها، وفيما تزين به عنقها وأذنها، فهي نبع جمال هادئ، تتحلى بكنوز الطبيعة، والملابس البدوية تبدو مبهرة، المرأة النجدية هي التي تصنع ملابسها دون مساعدة، وتتكون من: الثوب، ويصنع من قماش أسود، ويكون من لب الجوخ، تنقشه بالحرير الملون. والخرقة وهي عبارة عن قطعة من قماش لب الجوخ الأسود، ترتديها فوق الثوب، وتزين بخيوط الحرير، وجلبان في الأسفل. والمنقب وتلبسه المرأة غطاء للوجه، ويصنع من القماش الأسود، ويزين بالإزار ذي اللون الأبيض، وقروش البرق الخفيفة، ثم من الأسفل يزين بالرايش، وهو عبارة عن حبل من جلد الضان مشغول بحبات اللؤلؤ الصغيرة. والربض وهي عصابة توضع على الجبهة، وتلبسها البنت قبل الزواج، وتزين بالأصداف، وقروش البرق. والمقرنة التي تصنع من قماش لب الجوخ، وتزين بالأصداف واللؤلؤ، وقروش البرق، وتلبسها المرأة بعد الزواج. والرفرافة وهي قطعة قماش تلبس على الرأس عصابة، وتزين بالأصداف، وقروش البرق، وخيوط طويلة تسمى شماريخ. والحزام وتلبسه المرأة على خسرها، ويصنع من صوف الضان الأسود والأبيض ويزين بالأصداف واللؤلؤ. والوقاة التي تصنع من القماش الأسود، والتي تلبسها البنت وتزين باللؤلؤ، والودع الكبير.

وقد وصفت آن بلنت ملابس المرأة النجدية في أكثر من موضع، فذكرت أنها عبارة عن "ألبسه قطنية أو صوفية زرقاء داكنة أو سوداء، والتي تستعمل من قبل نساء البدو العاديات في هذا الجزء من الجزيرة العربية، وكانت عباءاتهن محاطة بحبل أو حاشية رفيعة حمراء للتزين، وكانت تبدو جميلة.

كانت الثياب التي ارتدتها عمشه وضرائرها صعبة الوصف، لم يكن لها شكل محدد، كانت كل واحدة تلبس رداءً كالعباءة، ولكنه مقفل من الأمام، ولا يلبس بإدخاله في الرأس. كان بلا حزام على الخصر، مما يجعله يبدو كالكيس. حيكت هذه الأردية من أنسجة رائعة مقصبة بالذهب والحرير، لكنها لم تكن مريحة أو جذابة، وكانت تخفي جمال القوام، كانت عمشة تلبس رداءً قرمزيًا مذهبًا، والتفت حول رقبتها سلاسل كثيرة من الذهب مرصعة بالفيروز واللؤلؤ. بينما تدلى شعرها بأربع جدائل طويلة مصبوغة بمادة مائلة للاحمرار (صبغة الحناء)، وبأعلى رأسها استقرت حلية من الذهب والفيروز لها شكل طبق صغير بقطر يقرب من أربعة إنشات، كانت توضع للأمام على حافة الجبين، وتربط للخلف بسلاسل من الذهب واللؤلؤ بحلية أخرى تشبه العقصة من الذهب والفيروز معقوفة خلف الرأس، لها شراريب متدلية على جانبي الرأس والعنق، تنتهي بخيوط طويلة من اللؤلؤ، وشرابات بشكل أجراس من الذهب واللؤلؤ. أما اللآليء فغير منتظمة، وبأحجام غير مرتبة، والفيروزات غير متساوية الحجم والشكل والنوع، بينما استخدم المرجان بشكل عام في السبحات. كانت الأجزاء المشغولة بالذهب جيدة، بعضها من فارس، والقسم الأكبر من صناعة حائل.

ولعلي قد نسيت أذكر أن الخزام الذي كان هنا أكبر مما رأيته في بغداد والمناطق الأخرى، إذ يبلغ قياسه إنشًا ونصف إلى إنشين. إنه يتألف من حلقة ذهبية رفيعة مع عقدة ذهب وفيروز معلقة بواسطة سلسلة إلى العقيصة الموصوفة آنفًا. ويُلبس في فتحة الأنف اليسرى، إلا أنه ينزع ويبقى متدليًا عند الأكل والشرب. إنها حلية غير مريحة، وعندما تنزع تترك في مكانها ثقبًا بشعًا في الأنف أكثر إيذاءً للنظر من ثقوب آذان الأوروبيين. ولكن سيدات حائل كما هن معاريف في الأماكن الأخرى يضحكن من هذه الانتقادات. فإنهن يعتبرن هذه الحلي كالملعب المفيدة ويتسلين أثناء حديثهن بنزعها ولبسها ثانية. بالإضافة إلى أن كبر حجم الخزام يدل على المكانة العالية، فيحدد قطر الدائرة مرتبة صاحبته، بينما يبقى حجم خزام من هي أدنى درجة في حدود الإنش أو أقل". (ص 261، 262).

ونستنتج من هذا أن للمرأة في ملابس مختلفة في كل مرحلة عمرية، فثوب الفتاة قبل الزواج يكون عادة مطرزاً بالألوان الخفيفة، والتي يبرز من بينها اللون الأزرق، ويكون غير كثيف التطريز، ليدلّ على الحياء والخجل اللذين تتصف بهما الفتاة قبل زواجها. أم ثوب المرأة المتزوجة فتبرز فيه كثافة التطريز، وبروز اللون الأحمر بشكل ملفت للأنظار، وقد يكون مطرزاً باللون الأحمر بالكامل. وثوب المرأة المتقدمة في العمر يطرز باللون الأزرق أو الأخضر، وبعض الألوان الأخرى الخفيفة، وتكون عروقه أعرض من عروق ثوب البنت، وهو يدل على الحشمة والوقار، اللذين تتميز بها المرأة الأم في مثل هذه المرحلة العمرية.

زينة المرأة النجدية

إن ما تزين به النجدية أذنيها مثل الحلق المصنوع من العقيق أو الشعب المرجانية أو الذهب يتناسب مع الجمال الهادئ الذي تتسم به المرأة البدوية، وهناك مصنوعات

جميلة من العاج تتمثل في الحلقان والأساور، التي تزين المعصم، وفي العقود المتنوعة، إضافة إلى استخدام القواقع الصغيرة من الأساور والعقود والأقراط، وكثير من أدوات الزينة يتم توريثها للأجيال التالية؛ لأنها تتمتع بقيمة عالية ثقافياً ومادياً، وبها مهارة في الصنعة، وعند وصف بلنت لزينة وحلي المرأة النجدية، قالت: "تصورت أن النساء هنا نادرًا ما كنا يهتممن بلباسهن، إلا إذا أردن إظهار ما لديهن من حرير ومجوهرات للزوار، وفي هذه المناسبات يبالغن في التبرج والتزين بالكحل والأصباغ الزاهية، ويستغرق ذلك وقتًا طويلا". (ص 259).

وتحدثت كذلك عن حلي المرأة النجدية؛ حين وصفت زوجتي محمد بن رشيد، فقالت: "كان لهدوشة ولولية، الزوجتين الأخريين، ما لها (عمشة) من القماش المقصب بالذهب، والشفاه والخدود المطلية بالأحمر القرمزي والعينين المؤطرتين بالكحل، لكن كان ينقصهما ما لها من السحر والجاذبية. بالإضافة إلى ذلك فإن عمشه ذكية ومسلية، وتمكنت من إبقاء الحديث دائرًا، بينما جهدت الأخريان للمشاركة فيه. لقد بدتا جميلتين، ولكنهما أبقيتا في مكانة ثانوية. ولقد شاركت لولية عمشه، كما قالت الأخيرة، فيما اعتبرتاه مزية، وهو عدم مغادرة البلدة. وقد نالتا بهذا الأفضلية على هدوشة التي تقع على كاهلها مسؤولية مرافقة الأمير في الصحراء حيث يمضي بعض أوقات السنة في المضارب، كان الإلزام بهذه الخدمة يعتبر منتقصًا للقدر، ولذلك كانت نساء حائل يعترضن عليه. ولم تكن لديهن تسلية، كما أخبرتني، إلا اقتناع تام بأن السعادة الحقيقية والجلال لا يتوفران إلا بالمكوث في البيت". (ص 260).

وتطرقت لوصف حلي وزينة المرأة النجدية في موضع آخر فقالت: "وهنا جاءت ابنة قوت واسمها أيضًا زهوة، جاءت مع أمة تحمل ابنها عبد الرحمن الذي يبلغ السنة من العمر. كانت زهوة جميلة ولكنها غبية ومملة كوالدتها. استغرقت تمامًا في عرض صندوق حليها، الذي أرسلت خصيصًا لإحضاره وعرضه أمامي، كانت حليها من النوع الاعتيادي، حلي للرأس والذراعين والكاحلين، فيها فيروزات وحبال من اللؤلؤ. وكان أثاث الغرفة الذي أشارت هي ووالدتها إليه لأبدي إعجابي به، كان يشبه ما سبق أن رأيته: صناديق بأرجل مزينة بصفائح من الفضة غير المصقولة". (ص 270).

ونراها تشير إلى طريقة لتهذيب الشعر وتنسيقه عن طريق تضفيره، وكانت المناسبة عندما سألتها زوجة محمد بن رشيد "عمشه: "لم لا تصنعين بشعرك مثلما أصنع؟"، وقد ناولتني إحدى ضفائرها الطويلة السمراء المشربة بالحمرة لأبدي إعجابي بها، فشرحت لها أن خصلات شعري القصيرة لا تكفي لهذا الغرض. ثم أضافت: "ولم لا ترتدين لباسًا مقصبًا بالذهب؟". فأجبت: "لا تصلح هذه الثياب الجميلة للأعمال الشاقة من سفر وصيد وركوب في الصحراء". ولدى ذكرنا لركوب الخيل بدت عمشه لوهلة متشككة حول رضاها بقسمتها في هذه الحياة، وقالت بأنها ترغب في رؤيتي على فرس، فوعدتها بذلك إن أمكن، إلا أن الفرصة لم تسنح أبدًا، ولربما حرصت السلطة العليا على عدم حدوث ذلك. إذ إن عمشه قد تصبح متذمرة". (ص 263).

صورة المرأة النجدية

المرأة نصف المجتمع، وتربى النصف الأخر، وهي الأم والأخت والزوجة والابنة، ومصدر الحنان والعاطفة في الحياة، وقد جعلها الله سكن للزوج، وجعل بينهما مودة ورحمه، وقد رأت آن بلنت المرأة النجدية في صور ثلاث: أم، وزوجة، وابنه، واستطاعت التفريق بين معاملة الرجل النجدي لها في هذه الصور الثلاث، وقدمت وصفًا دقيقًا لنماذج لها، فأشارت إلى صورة المرأة النجدية الأولى: الأم ودورها في حياة ابنها شيخ القبيلة، موضحة أنها لبيبة حسنة التربية، مهتمة بمظهرها وزينتها، وتلعب دورًا في قيادة القبيلة، فقالت: "أما أمه (جروان شيخ قرية أثرة) فهي امرأة لبيبة حسنة التربية، ويبدو من الغريب أن يكون لها مثل هذا الابن الخامل، أما أبناؤها الثلاثة الآخرون، حيث إن جروان كبير أبنائها الأربعة، فلا ينقصهم شيء من النجابة كباقي الناس، لكنهم مع ذلك لا يقدمون على أخيهم البكر. أتت مرزوقة لرؤيتي الآن، وبيدها طبق كبير من التمر، وتوقفت للحديث معي، كان وجهها لا يزال جذابًا، مما يدل على أنها كانت في الماضي بارعة الجمال، وقد لاحظت بأنها تلبس في أصابعها عددًا من الخواتم الفضية كخواتم الزواج". (ص 128).

وأثناء سفرها لنجد، التقت بشاب وأمه مسافران، وكشفت لنا عن أسمى معاني البر بالوالدين، التي حض عليها الإسلام فقال: "بعد ذلك بقليل لحقنا بشاب وأمه يسافران برفقة ثلاث ذلائل في اتجاهنا ذاته، وقالا إنهما ذاهبان للبحث عن قومهما، ومكثا الليل معنا، كانا طيبين، وكان الشاب لطيفًا مهذبًا مع أمه، جعلها تأوي إلى ظل أجمة غطاها بأقتاب الجمال، إنهما من عشيرة شمر، وكانا في مهمة عمل في حائل". (ص 330). وهكذا كانت المرأة النجدية، المرأة الصالحة، والأم الحنون، ربة منزل متوهجة النشاط تدفعها رغبة حانية للعطاء ومكابدة الصعاب من أجل زوجها وأولادها.

الصورة الثانية التي قدمتها آن بلنت للمرأة النجدية، هي الزوجة، المحبة، العشيقة، التي لا يقوم بناء مكين على أساس متين، إلا بدورها، فأساس البيت الاجتماعي، هو المرأة، فحيثما ترى المرأة مزودة بعزة النفس، ذات الفضائل الصادقة، والآداب الطاهرة، والأعمال المنزلية بدون فتور، تحكم أن هناك العمران الحقيقي، والحضارة المنشودة، وقد أسهبت في مواضع كثيرة في الحديث عن الحب والزواج والمهر، وحفل الزفاف، وأمور أخرى، فنراها تشير إلى أن الحب لدى النجدي يأتي من مجرد الحديث عن المرأة، فتقول: "لاحظت أنه (محمد بن عبد الله العروق) قد وقع في حبها، إذ أن العرب يتأثرون بأدنى الأمور، ونظرًا لعدم السماح برؤية النساء، فقد كانوا يقعون في الحب لمجرد الحديث عنهن، كان محمد يحثني على عدم إضاعة الوقت، والقيام بزيارة أمهن، فقد أعلن أنه سيتصرف وفق رأيي، وأنني يجب أن أعرف إن كانت مطرة جميلة، وحسنة الخلق، وقادرة على أن تصبح زوجة صالحة، كان يحسب ويقدر المهر الذي سيطلب من أجلها بأربعين جنيهًا، إنه مبلغ ليس بالقليل، لكنها أصيلة بالفعل، والمناسبة ليست بالعادية، فهي ابنة جازي، ابنة أخي مرزوقة، ابنة عائلة كريمة، عائلة العروق، لا، أربعون جنيهًا ليست بالكثير.

لقد أوكل إلى بالحكم عليها لكوني أملك بصيرة نافذة، ونظرًا لأنني رأيت كل زوجات وبنات شيوخ العنزة، فأنا قادرة على التمييز بين الغث والسمين، ومع ذلك فقد أراد أن يرافقني عبد الله ليجس الأخبار، كان يُسمح لعبد الله كقريب بالاقتراب من المنزل في مناسبة كهذه، أما محمد فلن يسمح له بذلك، اللهم إلا أن يرى الفتاة مصادفة". (ص 168).

وعن الحب والزواج في نجد، نراها تذكر أيضًا: "التقينا بعض الرعاة مع قطعانهم، وقد أرسلوا من البلدة للرعي، بينما أخذت النساء يجمعن الحطب. لقد أمتعنا محمد كثيرًا هذا الصباح بحديثه مع هؤلاء النسوة، فكان قد نجح بإلقاء نظرة خاطفة على عروسه المختارة، وأختها قبل الرحيل، وأخذ يتخيل نفسه واقعًا في الحب، برغم أنه لا يستطيع اتخاذ القرار بشأن من يفضل بينهما. فأحيانًا يفضل مطره، وأحيانًا أخرى يفضل الأخرى، لا لشيء سوى لأنها أطول وأكبر سنًا، ولم يكن حتى قد رأى وجهيهما.

لقد أظهر حديثه مع جامعات الحطب سذاجة في التفكير، وكان كلما رآهن يركب متوجهًا إليهن، وعند عودتنا وجدناه منغمسًا في نقاش جدي مع أكبرهن سنًا وأقبحهن بشأن أموره العاطفية. كان يبدأ بسؤالهن فيما لو كن من سكاكة، ثم يدير دفة الحديث إلى مدى معرفتهن بعائلة العروق. كان يسأل بشكل غير مباشر عن عدد البنات في منزل جازي، وفيما إذا كن متزوجات أم لا، ثم يقول إنه قد سمع أن أكبرهن جميلة جدًا، ويسأل بحذر عن الصغرى إلى أن ينتهي بكشف هويته، وأنه ابن العروق من تدمر، وأنه قد خطب تلك التي أحس أن النساء العجائز يفضلنها بالمواصفات.

على هذا النحو كان يزداد حيرة بين الأختين، فكان أحيانًا يتوهم أنه أسعد الرجال، وفي الأحيان الأخرى يشعر وكأن جازيًا قد ألصق به أقل ابنتيه قيمة، كان يرجع إليّ حينذاك راجيًا أن أعيد للمرة المئة وصفي لفضائل مطره، وهذا ما كان يعزيه لبعض الوقت، إلى أن يصادف من يثير الشكوك في عقله ثانية". (ص 181).

وتروي لنا قصة من قصص الحب والزواج في نجد قائلة:

"هناك قصة أخرى أخف وطأة، تدور أحداثها حول عاشقين شابين فرا من الجوف بنية الزواج، فلاحقتهما ذووهما. ولما شكا بأنهما ملاحقان، وبغية تجنب الفضيحة، اتفقا على أنهما بدلا من أن يمضيا معًا، فضّلا أن يسيرا بخطين متوازيين يبعدا الواحد عن الآخر بمقدار مئة ياردة، وعلى هذا النحو انطلقا في رحلتهما. فلما وصلا إلى أحد الأفلاج، وقد أشار لنا راضي إليه، نال منهما التعب كل مبلغ، فانطرحا كل منهما تحت شجيرة ليلاقي حتفه. وعلى هذه الشاكلة عثر عليهما، ولكن لحسن الحظ قبل فوات الأوان، وسر اختيارهما ذويهما على الجانبين، فصدرت الموافقة على زواجهما، وتم الاحتفال بعرس بهيج للغاية". (ص 198).

وعن هدف زيارتها لنجد، وهو زواج محمد بن عبد الله العروق مرافقهم ومرشدهم في البيداء، فتشير إلى أن "هدفنا الأول من زيارتهم هو إيجاد زوجة لمحمد، وبناء على طلبه اغتنمت أول فرصة سانحة للتعرف بنساء العائلة، لقد وجدتهن ودودات لطيفات وبعضهن ذكيات، وبدت معظم الشابات جميلات، أما أهم فرد بين الحريم فهي زوجة نصر، إنها سيدة مسنة قصيرة تدعى شمعة، نحيلة وذاوية، لها خصلة شعر رمادي طويلة مجعدة، وعينان ضعيفتان تنبئان بكبر سنها. وبالرغم من عدم تجاوزها لعمر الستين بكثير فقد بدت منهكة تمامًا، إنها أم تركي وعريبي، وكنت قد سمعت من محمد أن نصر لم يتخذ غيرها زوجة، إلا أنه كان مخطئًا، ففي زيارتي الأولى لها نادت زوجة أكثر شبابًا من الغرفة المجاورة وعرفتني بها". (ص 166).

وعندما تقدم محمد لخطبة إحدى بنات العشيرة، اجتمع مجلس العائلة للمناقشة وإعطاء القرار فيه "التقى الجميع في خيمتنا برئاسة ولفريد، وجلس محمد في الجانب الأول مع نصر، ككبير للعائلة، وفي الجانب الآخر جلس جازي وسعد يمثلان العروس، وفي الوسط جلس رجل قصير واهن على ركبتيه بتواضع، إنه لم يكن فردًا من العائلة بل وسيطًا بين الطرفين، أما في الخارج فقد تجمع الأصدقاء، والأقرباء البعيدون، كعبد الله وإبراهيم القصير وستة رجال من أبناء العروق. جلس هؤلاء أولا على مسافة لا بأس بها، وبعد أن حمى النقاش اقتربوا أكثر فأكثر، وأخذ كل واحد منهم يدلي برأيه". (ص 171).

وأوضح لها محمد تخوفه من أنه إذا أعلنت الفتاة عدم رغبتها في العريس فهي غير مخطوبة: "كان محمد مرتبكًا شاحبًا فتولى ولفريد الكلام في قضيته، سيطول الحديث لو ذكرت كل ما قيل، وكان النزاع يحتد أحيانًا حتى يبدو وكأن المفاوضات ستنقطع. احتج جازي بأنه من المستحيل أن يزوج ابنته الصغرى بينما تبقى الكبيرتان دون زواج، وقال "صحيح أن حمو مخطوبة دون نقاش، لكن عصر بالرغم من خطبتها لا تزال حرة، إذا لم يكن خطيبها جروان ابن مرزوقة المهزوز الشخصية بالزوج المناسب لها، فهو أبله ولن تتزوجه عصر أبدًا".

إذا أعلنت فتاة ما عدم رغبتها في الزواج من خطيبها، تعتبر غير مخطوبة، ولها أن تبحث عن الزوج الذي تحب. لكن هذا الأمر لا ينفع، وأورد مثالا عن زواج جدعان بفتاة مخطوبة والعاقبة السيئة لذلك، وهذا يبرهن على ضرورة موافقة جروان. أخذ محمد يكرر قائلا: "يا ابن عمي، يا جازي! كيف يمكنني أن أرتكب إثمًا بحق ابن عمي؟ كيف أسلبه عروسه؟ سيكون ذلك ولا شك خزيًا لنا جميعًا". (ص 171).

وعند الدخول في تفاصيل الزفاف، بعد موافقة مجلس العائلة، انتقل الحديث إلى تفاصيل المهر، وهو ما يعطيه الرجل للمرأة من مال نقدي أو عيني لقاء زواجه منها، ويسمى أيضًا الصداق، الذي تصفه آن بلنت بأنه بدا كأنه صفقة تجارية، "وأخيرًا تم الاتفاق على الزواج من مطره، لكن مسألة "التسويات" لم تنته بسهولة بل كادت أن تحبط تمامًا. كان ولفريد ينوي دفع المهر من أجل محمد؛ لكنه لم يقل ذلك حتى انتهاء الأمور، وترك محمدًا يناقش شأن المهر، وكأنه صفقة تجارية. كان محمد ماهرًا في ذلك بالرغم من رقة قلبه، وقد دعمه عبد الله الذي نظر إلى الموضوع من زاوية تجارية بحته، إلى أن انتهى الأمر إلى مبلغ وسط بين الاثنين وانفض الاجتماع". (ص 172).

وتوضح لنا قاعدة الزواج في نجد، وهي أن زواج الابنة الكبرى يكون أولا "فعصر، بخلقها الشرس، قد انفجرت في وجوههم وأفقدتهم صوابهم فور سماعها بأمر زواج أختها قبلها، فهي تحتقر جروان بالرغم من كونه شيخ كاف، وتريد أن تتزوج شيخ تدمر، لقد أرغمت العجوز جازي على أن يتراجع عن موافقته، وكانت مطره خائفة منها. فما العمل؟ قلت لها إن المسألة لا تحتمل النقاش ثانية، وإن لم تكن، وزوجها، قادرين على السيطرة على بناتهما؛ فمن الأفضل لنا أن نبحث عن زوجة لمحمد في مكان آخر، وقد كنت آمل في عدم وقوف عصر في طريق سعادة أختها، إذ كان ذلك لن يعود عليها بفائدة.

لقد أكد سوء طبعها استحالة زواجها من محمد، فكان لابد للعائلة من البت في الأمر حالا، إذ كنا سنغادر سكاكة حينئذ، ولابد من تسوية الأمور، قابلت بعد ذلك الفتاتين، وتحدثت إليهما بهذا السياق، وكانت النتيجة أن جاءنا محمد بعد عدة ساعات وهو مشرق المحيا يخبرنا أن عقد الزواج سيوقع في ذلك المساء". (ص 173).

ثم استمرت المساومات بشأن المهر "تم توقيع العقد أخيرًا بعد صعوبات جمة وبعد مساومات بائسة بشأن المهر اشترك فيها الجميع عدا تركي. فاستقر الأمر أخيرًا على خمسين ليرة تركية، ورفض ولفريد بفظاظة زيادة بشلك عليها، حتى ولو كان ذلك للتخلص من ابن عم لمطره ظهر على الساحة بشكل غير متوقع طالبًا بحقه في الزواج منها، عارضًا دفع المبلغ نفسه. لم تكن تلك المقايضة المادية باللائقة، والناس لدينا في إنجلترا يفعلون خيرًا بترك هذه المسائل للمحامين.

أن بلنت بالزي العربي

لكن تم أخيرًا إنهاء الترتيبات كلها، فقد كتب العقد ووقع، وسر الجميع". (ص 173).

وبعد الاتفاق على المهر استكملت مراسم الاحتفال بعقد القران كالتالي "كانت تتمة السهرة مليئة بالابتهاج، فقد ذُبح جدي، وتم أكله، وأُنشدت الأغاني ورويت القصص، ولم تستثن قصيدة ابن العروق طبعًا من البرنامج. إن نصرًا شاعرًا، وقام بارتجال قصيدة غنائية لهذه المناسبة. وكان من بين الضيوف اثنان من الحجاج قدما من مكة، وبعض الرجال الهاربين من التجنيد الإلزامي التركي في سوريا. قام هؤلاء بالاحتفال مع الباقين وكأنهم من الأقارب". (ص 173).

تعدد الزوجات

يعلل علماء الاجتماع ظاهرة تعدد الزوجات بعوامل اجتماعية واقتصادية، منها أن تكون المرأة عاقرًا، أو لا تلد سوى البنات لاعتقاد الإنسان منذ القدم أن الذكر امتداد لأبيه، به تستمر العقيدة، وتمارس الديانة، وتقام الشعائر، وتقدم الأضاحي والقرابين للآلهة، وأن الذكور هم عصب الأسرة، بهم تشتد وتقوى ويهاب جانبها. ومنها أن العمل تخف وطأته على الزوجات كلما ازداد عددهن، فالمرأة في بعض الجماعات، وخاصة الزراعية والرعوية، تقوم بأعمال كثيرة داخل المنزل وخارجه، وهي ترحب بالزوجة الثانية، وقد تطلب من زوجها، إذا أرهقها العمل، أن يتزوج من امرأة أخرى، تشاركها في عبء الأعمال. ومن عوامل تعدد الزوجات في الجماعات القبلية الرغبة في كثرة الأولاد ليزدادوا بهم قوة، وفي الجماعات البدوية يشيع تعدد الزوجات لقيام النساء بمساعدة الأزواج في كثير من الأعمال.

ولفت انتباه آن بلنت، وكل الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية، تعدد الزوجات لدى البدوي، وسهولة الزواج، والطلاق، لمن يقتدر على دفع مهر أكثر من زوجة، فقالت: "جاءت الزوجة الأخرى مع صبيين لهما أحدهما في الثالثة،

والآخر في الثانية، يدعى الأكبر مطرق، وبالرغم من اسمه، فكان يبدو ودودًا ومهذبًا، يشبه بذلك والدته التي أعجبني سلوكها المحترم تجاه شمعة، فضلا عن وجهها المليح، أما مطرق، فقد سبق أن شاهدته صباحًا مع نصر العجوز في البستان، وافترضت أنه حفيده، كان نصر يُفرط في تدليل الصبي كعادة العجائز بين العرب.

أعطيت مطرقًا كنزة حمراء صغيرة كنت قد ابتعتها لمنصور ابن سطام عندما كنا ننوي زيارة الرولة، أخذ الطفل يتبختر بين شقيقتيه الجميلتين، مظهرًا لهما لباسه الفخم، كانت أختاه تركضان إلى داخل المنزل وخارجه، طوال فترة زيارتي، وتساعدان في حمل أطباق التمر، ثم تقومان بأكله.

بعد ذلك، ظهرت زوجتا تركي (كانت إحداهما جميلة، والأخرى عادية)، وزوجة عربيي الجميلة التي تزوجها مؤخرًا، بدا الجميع على وفاق بخلاف ما تكون عليه الحال عادة بين الضرائر والكنات. كن تواقات لإسعادي، وبذلت بدوري كل جهدي لإرضائهن بأكل ما قدمنه لي من تمور مختلفة الأنواع، منها الجاف ومنها الدبقة، منها الحلوة، والأقل حلاوة، وكان بعضها طويلاً جافًا، والبعض الآخر رطبًا.

كانت شمعة تعامل الجميع بصفة من له السيادة، لكن لهجتها معهن كانت لطيفة مع ذلك، كان كلامها قليلا، بينما لم تتوقف الأخريات عن الكلام وتوجيه كل أنواع الأسئلة، مما تطلب مني معرفة أكثر باللغة العربية حتى أجيبهن.

وفي أثناء زيارتي وصلت ابنة نصر المتزوجة نضج Nazzch شقيقة تركي وعربيي، وصلت تحمل ابنتها وطبقًا كبيرًا من التمر، لقد قطعت مسافة ثلاثة أميال سيرًا من مدينة سكاكة، حاملة ابنتها السمينة ذات الأربع سنوات، بالإضافة إلى طبق التمر، وهي تتلهف لرؤيتي. كانت ممتلئة حيوية وسرورًا، تشبه بملامحها أخاها تركي، أي أن خلالها الطيبة كانت غالبة على جمالها". (ص 167).

كان هذا حديثها عن قائد وحاكم العشيرة، ولكن الأمر لفت انتباهها عندما دخلت إلى مخدع أكثر من شيخ في نجد، فلاحظت موضوع تعدد الزوجات هذا، فنراها تشير كذلك إلى أن "زوجات حمود، كزوجات محمد، يسكن في القصر، ولكن في مساكن منفصلة، وكان القصر كبلدة بحد ذاته". (ص 259).

ولكنها توضح أن أمر تعدد الزوجات ليس هباءً منثورًا، ولكنه له هدف، فتذكر أنها بينما كانت في قصر محمد بن رشيد أمير حائل، وتجلس مع زوجته الرئيسية "عمشة" في القهوة، "دخلت فتاة صغيرة جميلة اسمها عطوة، قدمت لي بصفة الزوجة الرابعة للأمير، فجلست بعد لولية. لقد بدت لي زوجة مقبلة أكثر من كونها متزوجة بالفعل، إذ كانت فتية جدًا، وبالفعل تبين أنها قد أحضرت لرؤيتها والتفكير في أمرها، وأن الأمير قد قرر رفضها لودانتها وعدم سمو منزلتها، كان في الواقع يخطط في ذهنه لزواج ملائم يجلب له الدعم السياسي بالإضافة إلى زيادة راحته البيتية. تلك هي أهدافه من مشروع زواجه الجديد كما استنتجت من سؤاله عن بنات شيوخ البدو الصالحات للزواج، فكم سيناسبه الزواج من ابنة أحد شيوخ الصحراء الكبار، حيث ستصبح عائلتها حليفته في الحرب، بينما تصبح هي نفسها، على عكس سيدات البلد، مستعدة دومًا لمرافقة زوجها إلى الصحراء، ولكن هل ستفضل فعلا الصحراء على البلدة". (ص 260، 261).

وتشير إلى أمر لعله يوضح مدى تقدير الرجل لزوجته، وهو أنه قد يبارح عشيرته للإقامة معها في ديرة عشيرتها، فقد سألت عواد رفيق سفرها الممتع الذي يحمل سيماء الجنتلمان، على حد وصفها له: "لم بارح عشيرته شمر، وأتى يقيم بعيدًا إلى الشمال من صلخد، فأجاب بأنه من "النصيب"، أي الأمر المقدر أنه تزوج امرأة من صلخد، فعافت هذه المرأة الابتعاد عن قومها. وسألته عما يفعل لكسب معاشه، فضحك قائلا: "أملك نصف فرس وذلولا، وأقوم بالغزو. هناك تسعة منا نحن الشمامرة في حوران، ونحن نذهب معًا تجاه الزرقا أو اللجاة الغربية، ونغنم المواشي في الليل". (ص 130).

إذا توفي الرجل فإنه يحق لزوجته أن تتزوج بآخر، دون انتظار موافقة أبنائها، حتى لو اضطرت للجوء إلى القضاء لتمكينها من حقها هذا، الأمر الذي قد يزعج أولادها، وفي هذا الإطار ذكرت قصة روتها تقول: "تزوج أحد المصاربة فتاة من عشيرة السويلمات، وما لبث أن مات عنها، فلم تمض بضعة أسابيع حتى تزوجت أرملته من جديد رجلا من أبناء عشيرتها. وقبيل موعد ولادة مولودها الأول نشب خلاف بخصوص نسب المولود، أما المرأة فأكدت نسبته لزوجها المصربي، بينما تمسك السويلمات بأبوة عشيرتهم له. أحيل هذا الخلاف كغيره من الخلافات التي تنشب في البادية إلى التحكيم؛ فعمد القاضي إلى اختبار صدق الأم بوضع جمرة ملتهبة على لسانها (تعرف هذه العادة بالبشعة، والقاضي بالعارفة) لكنها رغم هذه المحنة القاسية لم تتراجع عن دعواها، وكسبت الحكم لصالحها. ولكن يبدو أن الابن لم يكن راضيًا بهذا الحكم، فحالما وضعته أنه التفت إليها حانقًا ومغضبًا". (ص 57).

الصورة الثالثة التي قدمتها آن بلنت للمرأة النجدية، وهي كونها ابنة، وأوضحت ذلك في قصة روتها، توضح كيفية حل تباغض بين الأم والابنة، تقول: "أما قصة القصيدة فكانت بسيطة، وتروي كيف أن أم حمدان وأخته تخاصمتا وتباغضتا، فرفعتا قضيتهما إلى عبيد ابن رشيد في حائل، وكيف قام الشيخ العجوز بفض النزاع بأن ربط حبلا حول عنق الابنة، وطلب إلى الأم الإمساك بطرفه، على أن تستمر على هذا النحو طوال عمريهما، عند ذلك ما كان من الابنة إلا أن اعتنقت أمها وقبلتها". (ص 136)

وتوضح أمر منتشر لدى العربي، ويمثل قاعدة شعبية، تنسب البنت لأمها والصبي لأبيه، فتذكر أنها بينما كانت "جالسه مع بنية صعد حمود وبقي لبضع دقائق فقط. كانا يبدوان منسجمين، وبعد مغادرته تحدثت كثيرًا عنه، وبدت فخورة جدًا به. وكانت تقول: "هذا لحمود، وهذا، وهذا"، "وهذا هو سريره"، مشيرة إلى كومة من الحشيات فوقها غطاء جميل، كان هناك بعض قطع الأثاث الأوروبي في الغرفة، كبعض المرايا الشائعة، والإطارات المطلية، وساعة ذات بندول، انضمت إلينا رقية، فأرتني بنية عقدًا جميلا من الذهب والمرجان كانت أختها تلبسه. قالت: "كان هذا لوالدي"، وأضافت بأن تلك الحلية جاءت من إيران.

بدت بنية شديدة الاعتزاز بابنها عبد الله، وهو صبي جميل عمره أربعة أشهر. كانت وأختها ودودتين جدًا، لدرجة أنني كنت على استعداد لأمضي معهما فترة ما بعد الظهيرة. لكن كان قد حان الوقت للقيام بزيارتي التالية. وبعد الوداع والأمنيات الحارة من قبل الأختين، أمسكت دليلتي السوداء بيدي، وتقدمنا إلى شقة زوجة أخرى لحمود، وهي زهوة بنت طلال، إنها لطيفة وذكية، نحيلة وقصيرة، ولها يدان صغيرتان. كانت تلبس كباقي السيدات، خواتم في أصبعها تحتوي على فيروزات كبيرة غير منتظمة. جلسنا قرب النار وتناولنا الليمون الحلو، والليمون الحامض، وشربنا الشاي، أرسلت زهوة في طلب ابنتها البالغة من العمر تسعة أشهر لتريني إياها، فأخبرتها بأن لدي ابنة أيضًا (الوحيدة جوديث Judith ولدت عام 1873، وعرفت نسبة لزوجها باسم الليدي وينتوورث Lady Wentworth)، وبأن البنات أفضل من الصبيان، مما سرها فأجابت: "نعم، البنت لأمها، والصبي ملك لأبيه". (ص 268).

ولاحظت بلنت حالة ووضع المرأة في المجتمع العربي، موضحة أن المرأة العربية تتمتع بحظ وافر من الحرية، وغالبًا ما تتمتع بقدر كبير من القوة داخل أسرتها، فلم تزعم كما فعل غيرها من الرحالة أن العربيات يعاملن معاملة العبيد فقط، لقد تأثرت بلنت برؤيته الإسلام على أرض الواقع، أي الشعائر الدينية للعرب، وخضوعهم للشريعة، لقد أدركت أن الإسلام في عصرها قد وهن كثيرًا، إلا أنه ظل هناك الكثير مما يمكنه التأثير فيه ونيل احترامه، وعن الحياة العائلية في نجد، وعلاقة الرجل النجدي بأهل بيته، وأولاده، توضح أنه يسودها البر والتواصل والتعاطف والتراحم والتقدير، فتقول: "بقينا ثلاثة أيام مع نصر وأبنائه، وزوجات أبنائه، وأطفالهن في مزرعتهم الهادئة. كانت بالنسبة لنا راحة نحن بحاجة إليها، وأضافت إلى تجاربنا شيئًا ممتعًا، وفرصة عظيمة لنتعرف أكثر على الحياة العائلية العربية". (ص 165). "إن نصرًا هو كبير العائلة الآن، أو على الأقل ذلك الفرع الذي يقطن واحات سكاكة. ويعيش في منزل مجاور لمنزل ابن عمه جازي ابن العروق، أخو صديقتنا مرزوقة، وأب لابنتين جميلتين، كان هؤلاء، بالإضافة إلى أقارب آخرين، يؤلفون عائلة صغيرة هانئة تعيش معًا في مزرعتها النائية". (ص 166).

أمة (اقرأ) لا تقرأ!

بقلم: عماد أحمد العالم

رغم ما تعودنا سماعه وترديده عن كوننا كعرب ومسلمين "أمةٌ لا تقرأ"، أو كما دأبت النخب منا على وصفنا وترديدها ذلك حين تُسأل عن سبب ضياع المعرفة وتضاءل الإنتاج الفكري والأدبي، أو لنقل كما جرت العادة أن يُطلق علينا بأننا هجرنا القراءة والكتابة والثقافة الشخصية وأصبحنا نميل لأن نكون متلقين أكثر ومترددين لا منظرين، نستقي المعلومة من المشاهدة، ويلعب الإعلام المرئي والمسموع الدور الأكبر في ثقافتنا وتوجيهنا ومعرفتنا عبر اعلام المعلومة الجاهزة لا الرأي؛ إلا أن واقع معارض الكتاب السنوية التي تطلقها وتستضيفها أغلب الدول العربية تشهد عكس ذلك وتبعث على التفاؤل، فالأرقام الصادرة عنها تشير إلى أعداد كبيرة من الزوار، من مختلف الأعمار والتوجهات. المبيعات مرتفعة، والإقبال متنوع ولا ينحصر في فئة عمرية واحدة. أعداد الناشرين كبيرة والمعروض من الإصدارات كثير. في حين نشهد وباستمرار بروز مؤلفين وكتاب جدد مغمورين وغير معروفين كسروا احتكار المشاهير من الأدباء والكتاب، وفرضوا وجودهم وأثبتوا أنفسهم في فترة قصيرة عبر ابداعات نالت الاهتمام، وأحدثت أثراً ايجابياً.

إذا أين المشكلة، ولم دوماً نحن كعامة وجمهور محل النقد لكوننا هجرنا ثقافة القراء واتجهنا للإعلام الترفيهي، الذي جعل منا متلقين تابعين لا أصحاب رأي وفكر وثقافة؟ وهل مثل هذه المعارض السنوية والمناسبات تمثل المقياس الدقيق لقياس درجة ثقافة القراءة لدينا، أم أنها لا تعدو أكثر من رغبة مؤقتة وحدث مستفز لعقولنا ما نلبث أن نتحاشاه بعد أن نرتب ما اقتنيناه من كتب في مكتبتنا بدون أمل للرجوع إليها والاطلاع عليها؟ وكيف نفعل حملة القراءة للجميع دون أن ندعي ذلك ونروج لها كحدث ثقافي ينتهي بانتهاء تغطيته الإعلامية!

أتوقع قبل أن نبدأ في غرس فكر القراءة، علينا أولاً أن نروج للثقافة الشخصية ومدى أهميتها وضرورتها، عبر حملات تدغدغ "الأنا" في داخلنا وتجمل لها انسانيتها وهي مثقفة تعي ما حولها وتسهم دوماً في نشر المعلومة وإثرائها.

علينا أيضاً أن نستطلع موضوع الكتاب، وندرس توجه غالبية الجمهور ورغباته وأهواءه وما يثير فضوله ويستفزه، ونستوعب تطلعاته فيما قد يجذبه للقراءة، مع العمل على عدم حصر ذلك في مجال بعينه، بل نسهم في أحداث حالة من التنوع، دون التركيز على مجال على حساب آخر. هذا بالتزامن مع تأصيل مبدأ استغلال الوقت ولو قليله في القراءة أثناء الانتظار، والتربية المبكرة لأطفالنا وتعويدهم على أن متعة طفولتهم لن تكتمل لهم إلا إن قرأوا دون أن نحرمهم ملاهيهم الأخرى، ولكن مع أحداث موازنة إيجابية في استغلال أوقات فراغهم.

لفترة قريبة وفي أغلب مجتمعاتنا العربية، كان العديد منا ينظر باستغراب وفضول وقد يكون استهجانا لمن يحمل كتاباً في يده أو رواية وينشغل بقراءتها عن النظر في من حوله في وسائل المواصلات العامة، أو أثناء انتظاره مثلا لحافلة أو موعد إقلاع رحلته. نظرة أخرى وسمته ووصفته "بالمتفلسف" أو من يحاول أن يظهر للآخرين بشخصية المثقف. في حين وفي كل من حولنا من دول، ستجد أن ثقافة النظر للآخرين أثناء الانتظار في الأماكن العامة مستهجنه، والتصرف الأبرز للأغلبية يتمثل بقراءتها لما بين يديها أياً كان محتواه.

واقعنا يشير إلى أننا من أضعف الأمم القارئة، وأطفالنا هم الأقل، والأغلبية العظمى من الرجال والنساء في العالمين العربي والإسلامي لا يمضون وقتاً يُذكر في القراءة، وعادة شراء الكتب لدى العديد منا في المناسبات لا تعني أبداً أو تشير إلى تحسن مستوياتنا الثقافية، وازدياد الوعي لدينا بضرورة وأهمية وروعة المعرفة، التي يمثل الكتاب الباب والمنفذ لها، والسبيل الأمثل لنيلها.

أعطني أمة تقرأ وسأضمن لكم تمدنها وتحضرها وتقدمها وإنسانيتها، وتخلصها من مساوئها والتزامها بالنظام والنظافة وتمتعها بالأخلاق واحترامها للقوانين، فالقراءة بجانب كونها تثقيف وتسلية هي أيضاً تهذيب وسمو وتربية.

القراءة في عصر الأجهزة المحمولة

كشف تقرير لليونيسكو، بعنوان (القراءة في عصر الأجهزة المحمولة)، أن مئات الآلاف من الأشخاص باتوا يستخدمون التكنولوجيا المحمولة، الجوالات والأجهزة اللوحية، كوسائط لقراءة النصوص. وتشير البيانات إلى أن أعداداً كبيرة من الأشخاص الذين يعيشون في بلدان تعاني من ارتفاع معدلات الأمية ونقص حاد في المواد المطبوعة، يقرؤون نسخاً كاملة من الكتب والروايات باستخدام أجهزة بسيطة ذات شاشات صغيرة.

ويمثل التقرير أول دراسة في العالم تتطرق إلى الأشخاص الذين يطالعون الكتب وغيرها من المواد باستخدام الأجهزة المحمولة في البلدان النامية، ويقدّم معلومات مفيدة عن أساليب استخدام الأجهزة المحمولة للقراءة وعن الفئات التي تتّبع هذه الممارسة.

وحالياً، يفتقر 774 مليوناً من الراشدين و123 مليوناً من الشباب على صعيد العالم إلى مهارات القراءة والكتابة، وغالباً ما ترتبط مشكلة الأمية بمشكلة النقص في الكتب. فعلى سبيل المثال، لا يتوافر لدى معظم سكان أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى أي كتاب من أي نوع، ولا تؤمّن مدارس هذه المنطقة كتباً للدارسين إلا في حالات نادرة.

ومع ذلك، يفيد التقرير بأن التكنولوجيات المحمولة تُستخدم بصورة متزايدة في المناطق التي تندر فيها الكتب، وحتى في الأماكن التي يعيش سكانها في فقر مدقع.

وأجريت الدراسة الرائدة لليونسكو حول استخدام الأجهزة المحمولة للقراءة في سبعة بلدان نامية هي إثيوبيا وغانا والهند ونيجيريا وباكستان وأوغندا وزمبابوي. واستناداً إلى تحليل شمل أكثر من 4 000 مسح ميداني ومثل عددها من مقابلات نوعية، بيّنت الدراسة ما يلي:

– أن أعداداً كبيرة من الناس (ثلث المشاركين في الدراسة) يقرؤون قصصاً للأطفال باستخدام الهواتف المحمولة؛

– أن الإناث يستخدمن الأجهزة المحمولة للقراءة أكثر بكثير مما يفعله الذكور بست مرات؛

– أن الرجال والنساء على السواء يكتسبون قدراً أكبر من المعلومات عندما يطالعون الكتب باستخدام الأجهزة المحمولة؛

– أن الكثير من حديثي العهد بالتعليم وشبه الأميين يستخدمون هواتفهم المحمولة للبحث عن نص يمكنهم قراءته.

والهدف من الدراسة هو توفير خارطة طريق للحكومات والمنظمات والأفراد الراغبين في استخدام التكنولوجيات المحمولة للمساعدة على نشر القراءة وتعزيز محو الأمية.

سلطة الوهم عند ابن عربي 1- 2

محمد بنيونس - المغرب

يعيش الإنسان مع ذاته صراعات عديدة منها داخلية وأخرى خارجية، تؤثر على داخل الإنسان ليصبح الصراع فردي و شخصي، مما يطرح صعوبات في تحديد الذات، ومن ثمة الإنسان، كل طرف من أطراف الصراع يحاول أن يأخذ وضع التعريف و التحديد ، كتحديد الإنسان بالعقل أو النطق أو الجسد أو بالروح، إلا أن هذا الصراع يعمل على تغيير المواقع والأولوية، ويعيد مسألة التحديد إلى عدم التحديد بوجه واحد والارتكاز على معطى دون آخر، ومن بين الأمور التي تؤثر في عملية التحديد وتشوش على إمكانية التعريف هو مفهوم الوهم، الذي يعطيه ابن عربي أهمية في تصور الوجود والعالم والحقيقة، بل وله سلطة على العقل والتفكير، مما يهدد الوجود والعالم والحقيقة بدخول الأوهام عليها في تصور لها .لذلك يطرح علينا هذا البحث الخروج بمجموعة من الضوابط ، تؤطر العقل والتفكير، للوصول والبحث عن الحقيقة، بحيث يجب أن تفضي هذه الآليات إلى نتيجة ممكنة، وهذه الآليات وجب ضبطها وتصنيفها وتمحيصها، حتى لا يزيغ العقل ويحيد عن المطلوب. إذن، ما هو الوهم في تصور ابن عربي؟ وكيف يشتغل ويؤثر في مصادر المعرفة كالعقل والتفكير؟ وهل يمكن تجاوز الوهم أم أنه من صميم وجودنا وماهيتنا؟ وكيف يمكن توجيه الوهم نحو طريق الحقيقة ؟

1 – تعريف الوهم

يعتبر الوهم من المفاهيم المتداولة في كتابات ابن عربي، بحيث يعطيه أهمية في تحصيل المعرفة والتأثير في الوصول إليها، لذلك لديه القدرة في التحكم والسيطرة من خلال سلطته التي يفرضها على النتائج المتوصل إليها، وكذا طريقة التفكير التي يتنعها في تحصيل المطلوب. وقد تدخل عدة عوامل في الزيادة من حدة الوهم وقوته أو قد تخفف من سطوته وتحكمه " فالوهم هو السلطان الأعظم في هذه النشأة الإنسانية "إلا أن الوهم قبل أن تكون له هذه السلطة هو قوة من قوى الإدراك " غير أن هذه القوى الأربعة قوة الخيال والوهم والحفظ والذكر هي في الإنسان أقوى منها في الحيوان "من هنا جاءت سلطته و قوته و تحكمه، أي أنه لا يمكن الاستغناء عنه أو محاولة تجاوزه لأنه يطال مصادر المعرفة و طرق الوصول إليها، فيؤثر فيها ويتدخل في تشكيل معالمها، كما أنه قد يتحكم في رؤية الإنسان للوجود والعالم ولذاته. مما يعطي انطباعا أوليا بأن الوهم يسري في الإنسان وقدرته على إدراك وتصور كل من الوجود والعالم وذات الإنسان. وبالتالي، قد نقول إن سلطة الوهم آتية من تحكمه في باقي القوى وكيفية انتقال المعرفة فيما بينها خصوصا العقل.

2 – سلطة الوهم

يقدم لنا الوهم الأشياء على غير حقيقتها، بحيث نخرج الشيء عما صوره لنا العقل و قيده به. يطال الوهم الصورة فيحدث فيها تغييراً على حسب استعداد الإنسان. ولا يستطيع العقل مجارات الوهم في توهمه و تعامله مع الأمور و الأشياء لأنها " تنفلت من العقل وتثبت في الوهم ويحكم عليها ويؤثر فيها "بحيث ما لا يضبطه العقل وينفلت من حدوده وتحديده يظفر به الوهم ويتحكم فيه، بل يتجاوز حدود التحكم نحو التأثير، و قد يحدث تغييراً في تصورنا للأشياء. وهم الصورة ليست في تشويه الواقع و تحريفه وإخراجه عن حقيقته وإنما وهم الصورة هنا تطال العقل والكيفية التي يتصور بها الأشياء. إذن، ما يحاول ابن عربي الوصول إليه هي الحقيقة الخالصة من كل تشويه أو شبهة أو خطأ أو مغالطة. لذلك يحاول ابن عربي تحديد حدود العقل وتأطير الممارسة العقلية، ولهذا الغرض انصبت معظم كتابات ابن عربي في رسم الحدود للعقل وتحديد دوره في الوجود، حتى لا يحيد عن المقصود.

ما نتوهم بالوهم لا وجود له في ذاته، أي الوجود العيني، " المتوهم ما لا وجود له في عينه "بحيث يعطي الوهم ما لا يعطيه العقل، يصور لنا العدم وجوداً، ويمنح المعدوم صورة الوجود. إشكالية الوهم هي في تصويره لنا للموجود على مستوى الوجود، مما يعطي الأمر بخلافه، ويحدث أثراً في النفوس والعقول، من هنا سلطته على الإنسان وليس فقط على العقل، لأن الإنسان هو من يعطي للوهم فرصة بأن يسيطر عليه، من خلال هواجسه ومخاوفه، سلطة الوهم آتية من قدرته على التأثير لأن " أثر الأوهام في النفوس البشرية أظهر وأقوى من أثر العقول ". ما نتوهم وجوده وهو غير موجود قد يحدث أثراً وتغييراً في الذات، سواء في التصور أو على مستوى الآثار النفسية. وبالتالي، من قوة الوهم قدرته على التحكم في العقل، ومن ثمة في المعرفة التي ينتجها، أي أن الإنسان في حد ذاته، بمخاوفه وهواجسه، يعطي لما لا وجود أن يتحكم فيه.

3 – أوهام العقل

إذا كان العقل حسب ابن عربي قيد "فإن العقل قيد"يعقل الأمور بحدها وتحديدها ووضع الحدود لها حتى تُعرف بماهيتها وجوهرها، لأن تحرير المعرفة أو العلم من الحدود قد يؤدي إلى التداخل وعدم إمكانية التمييز بين الحقيقة والوهم، بين الصواب والخطأ، إلا أن الأولى والأجدر أن يضع العقل حدوداً لممارسته، أي أن يمارس على ذاته ما يمارسه على غيره، إذ عليه أن يضع حدوداً لممارسته في تحديد الأشياء، وإلا فإنه قد يسقط في أوهام ميتافيزيقية، وهذا الوهم هو ما يمكن تسميته "بوهم إدراك ما لا يمكن إدراكه" أو "بوهم تصوير ما لا يمكن تصويره"، وذلك بادعاء العقل قدرته على تقييد المطلق، إلا أن المطلق لا يتحدد حسب ابن عربي " فلا تكون معرفة الحق من الحق إلا بالقلب لا بالعقل ثم يقبلها العقل من القلب كما يقبل من الفكر، فلا يسعه سبحانه إلا أن يقلب ما ما عندك، ومعنى قلب ما عندك هو أنك علقت المعرفة به عز وجل وضبطت ما عندك في علمك أمراً ما، وأعلى أمر ضبطته في علمك به أنه لا ينضبط سبحانه لا يتقيد ولا يشبه شيئاً ولا يشبهه فلا ينضبط مضبوط لتميزه عما ينضبط ، فقد انضبط ما لا ينضبط"وهذا ما يحاول العقل فعله، وهو تقييد المطلق بتحديده وتصويره، وهذا محال حسب لبن عربي. وبالتالي، من طبيعة الذات قبول التقييد، لكن ليست "ذات الله" ولولا التقييد لما تميزت الذوات ولما عرفت على حدى، ولطالها النسيان وأخفاها الاشتراك، فتضيع الحدود وتتجاوز القيود، مما يؤدي بالعقل إلى الوقوع في الأوهام والمغالطات، خصوصاً تلك التي تطال أحكام العقل " ولولا العين ما ظهر للتقييد حكم في الكون، فلو زالت الحدود لزال التقييد، ولا سبيل إلى زوالها فإن بقاء ها عين كمالها بها صنعت المناضلة وبانت المفاضلة ". إذن، ما هي حدود العقل؟ و كيف يمكن الالتزام و التقيد بها ؟ ومن يضع هذه الحدود ؟ هل العقل هو من يضعها أم يضعها غيره ؟

3-1– حدود العقل

تروم محاولة ابن عربي في وضع الحدود من أجل احترام المهام، وعدم التطاول على الغير، وإذا لم يتخل العقل عن أنانيته فإن غيره يثوق إلى تجاوزه وإظهاره بمظهر الجاهل الذي يعول على غيره ولا يعول عليه " فلا أعلم من العقل ولا أجهل من العقل، فالعقل مستفيد أبدا فهو العالم الذي فهو العالم الذي لا يعلم علمه و هو الجاهل الذي لا ينتهي جهله ". ما يحاول ابن عربي القيام به هو محاكمة العقل ووضع الحدود له لأن " للعقول حد تقف عنده "، محاكمة العقل هنا في تجاوزه لحدوده، لأنه في ذلك يكون معرضاً للخطأ من جهة،

ومن جهة أخرى إرادته في السيطرة على غيره لأن " العقول المحجوبة بالهوى وبطلب الرياسة والنفاسة و العلو على أبناء الجنس يمنعهم ذلك من القبول والانقياد". إذن، ما وضعت الحدود إلا لتحترم، وإذا لم تحترم نقع في الانتهاك. ما يريده ابن عربي من نقده للعقل وموقفه منه، هو منعه من الوقوع في الأوهام أو سقوطه في الأخطاء والمغالطات، لأن ما يعيبه ابن عربي على العقل هو مآل المعرفة التي ينتجها، وكأنه يحاول تقويم العقل حتى لا يقع في هذه الأوهام و الأخطاء، وهذا التقويم له ضوابط و قواعد وما على العاقل أو العقل إلا أن يضبطها و يلتزم بها للوصول إلى الصواب من المعرفة.

تأصيل ابن عربي للممارسة العقلية حتى يكون قادراً على الإدراك الذاتي، يؤدي به إلى الوقوف من العقل موقفاً سلبياً، يتجلى في تضييق الحدود عليه، وجعله فقط قابلا يتلقى دون امكانية الفعل النظري الذي يتميز به " فقد علمنا أن العقل ما عنده شيء من حيث نفسه وأن الذي يكتسبه من العلوم إنما هو من كونه عنده صفة القبول ". يحاول الشيخ الأكبر أن يذهب بالعقل إلى أبعد الحدود الممكنة فيجد دوره يقتصر فقط على القبول، عقل قابل يعني عقل غير قادر على الفعل، ينتظر ما يمكن أن يقدمه الشيء أو يكشف عن خفاياه، لم يضع ابن عربي هنا الحدود للعقل وإنما قام بسجنه، وفي نفس الوقت وسع من أفق رؤيته للوجود والعالم، من خلال قدرته على قبول كل شيء، و الأهم من ذلك هو عدم الوقوع في الوهم أو الخطأ الذي يشكل أكبر تهديد للعقل.

دعوة ابن عربي لوضع الحدود كانت الغاية منه، الحد من فعالية العقل وأن يقتصر دوره على التلقي، أي عقل منفعل ومرتبط بغيره في تحصيله لمطلوبه " فمن طلب الله بعقله من طريق فكره و نظره فهو تائه و إنما حسبه التهيؤ لقبول ما يهبه الله من ذلك فافهم". أي إن ابن عربي لا يدعو إلى استقلال العقل وإنما إلى تبعته. وبالتالي، على الرغم من بحث ابن عربي عن نجاعة العقل في فعل المعرفة، إلا أنه ضيق من حدود فعله، مما يخدم توجهه و غايته و هي فلسفة التلقي و الانتظار " إن علومنا غير مقتنصة من الألفاظ ولا من أفواه الرجال ولا من بطون الدفاتر والطروس بل علومنا عن تجليات على القلب عند غلبة سلطان الوجد وحالة الفناء بالوجود ". بمعنى آخر أن كل ما يتلقاه الصوفي هو من استعداده للقبول والتلقي وليس من استقلاله وإرادته في المعرفة وادعائها لأن " الحق الذي نأخذ العلوم عنه بخلو القلب من الفكر والاستعداد لقبول الواردات هو الذي يعطينا الأمر على أصله من غير إجمال ولا حيرة ". إذن، أهم حد يضعه ابن عربي للعقل هو أن يقتصر دوره على القبول والتلقي وأن لا يتعدى ذلك نحو الفعل والنظر " إذ إن علوم النظر أوهام، عند أهل الإلهام القائم عن الإلهام لا تخطيء والحكم به لا يبطئ " . لماذا إذن ، هذا التضييق على العقل؟

تضييق ابن عربي على العقل ، كان يهدف لتأسيس معرفة لها مصداقية أكبر، ولا يدخل عليها الخطأ والباطل والوهم، إلا أنه " لا بد من سلطان الوهم الذي يحكم على العاقل الباحث فيما جاء به الحق في هذه الصورة "، ولأن هذه الأوصاف أي الباطل والخطأ والكذب، يعطيها اسم واحد هو العدم، وما نحتاج إليه هو عدم العودة إلى العدم والهروب منه، أي الابتعاد من العدم والخروج معرفياً إلى الوجود، لذلك فالمطلوب في المعرفة أن تكون صادقة صحيحة لا فاسدة، صائبة لا خاطئة، معرفة يمكن نعتها بالوجود، ومن ثمة على العقل أن لا ينزلق إلى الأوهام و إنتاج أحكام يطالها الخطأ و الغلط، وأن يكون قادراً على إنتاج الجديد ولا يقع في آفة التقليد، الذي يقتل العقل، ويحد من انفتاحه على الوجود.

يحد الإنسان بحدود حسه وخياله وفكره، أي أنه لا يستطيع تجاوز هذه الحدود، فمن أين له بذلك الادعاء الذي يدعي فيه القدرة على التجاوز والوصول إلى عوالم غير موجودة والعيش والتواجد فيها؟ وأي إنسان هذا الذي لديه هذه القدرة على كسر الحدود وتجاوز الملموس وعدم الاعتراف بالموجود نحو اللامحدود ؟ ما الذي يعطيه ذلك ؟

أ – حدود حسية

يرى الشيخ الأكبر أن بنية العقل هشة، و يعتمد على غيره في بناء الأحكام العقلية ، لأن العقل في ذاته مفتقر إليها، أو أنه فارغ إلا من الضروريات أو ما هو فطري مادام " العقل لا علم عنده إلا الضروريات التي فطر عليها ". هناك مبادئ ، لكنها مبادئ ضرورية و فطرية تحتاج إلى من يفعلها ويحركها نحو تحصيل المعرفة، و هذا التحريك تدخل فيه مجموعة من القوى. لكن في قول آخر يرى أن العقل فارغ من أي محتوى" فقد علمنا أن العقل ما عنده شيء من حيث نفسه، وأن الذي يكتسبه من العلوم إنما هو من كونه عنده صفة القبول". يركز ابن عربي دائماً على القبول والتلقي، هذه هي حدود العقل التي عليه أن لا يتجاوزها، فالعقل فقير بالذات، وافتقاره هذا جعله في حاجة إلى غيره في إصدار أحكامه العقلية " فانظر يا أخي ما أفقر العقل حيث لا يعرف شيئاً مما ذكرناه إلا بواسطة هذه القوى و فيها من العلل ما فيها ".

تمر المعرفة العقلية حسب ابن عربي عبر سلسلة من النقلات لكي تصل إلى العقل، مروراً من الحس إلى الخيال إلى الفكر، وهذا الأمر يضع مسافة بين الشيء وإدراكه مباشرة من طرف العقل، إلى جانب عيب الوساطة هناك عيوب تنطوي عليها كل قوة، وهو أنها غير قادرة على تجاوز حدود إدراكها، و فيها من العيوب ما فيها، مما يطرح على المعرفة العقلية صعوبات أهمها السقوط في الغلط و الخطأ، ومن ثمة إنتاج الأوهام بحيث "ما من قوة إلا ولها موانع وأغاليط فيحتاج إلى فصلها من الصحيح الثابت".

يؤدي عيب الوساطة إلى عدم إدراك الشيء مباشرة وفي ذاته، مما قد يضيف إلى الشيء أشياء كما قد ينقص منه. انتقاد ابن عربي للعقل هو انتقاد للطريقة وادعاءاته النظرية في الممارسة الفعلية لإنتاج معرفة عقلية. من هنا كانت أهمية دعوة ابن عربي لإقامة الحدود حتى لا يسقط العقل في ادعاء ما ليس له، أي ادعاء الاستقلالية و الفعالية وهو في ذاته مفتقر ويعتمد على غيره في إصدار الأحكام والتي قد يطالها الوهم.

يحاول ابن عربي أن يقتفي مسار المعرفة، للوقوف على مصادر الوهم والقوى المسؤولة عنه، فيبدأ بالحس أولا في علاقته بالحكم العقلي ، و ينسب الخطأ للعقل وحده، ويتهمه بالغلط، ولا دخل للحس في ذلك ولا حتى الخيال. لكن الفكر قد يكون له دور كبير في أوهام العقل.

يعتمد العقل على ما ينقله الحس كشاهد، لأنه ينقل ما يتلقاه دون أن يتدخل في ذلك، كما أن إدراك الحس مباشر وبدون واسطة، لأنه يكون أقرب من الشيء أكثر من غيره. لا يخطئ الحس لأن إدراكه مباشر ولا يتدخل فيما يتلقاه " فما غلط حس قط و لا ما هو إدراكه ضروري، فلا شك أن الحس رأى تحركاً بلا شك ووجد طعماً مراً بلا شك، فأدرك بالبصر التحرك بذاته .... فبان أن العقل غلط لا الحس، فلا ينسب الغلط أبداً في الحقيقة إلا للحاكم لا للشاهد". لذلك لا يخطئ الحس عند ابن عربي، إلا الناقل قد يتصرف فيما ينقله، و الشاهد قد يتدخل في تغيير معالم الشهادة، إلا أن ابن عربي يؤكد على أن الخطأ ليس من طبيعة الحس وإنما من العقل " فلم يجعل للحس غلطا جملة واحدة. وأن الذي يدركه الحس حق فإنه موصل ما هو حاكم بل شاهد، وإنما العقل هو الحاكم والغلط منسوب إلى الحاكم في الحكم."إذن، يعطي ابن عربي أهمية للحس وعدم وصفه بالغلط أو امكانية الوقوع في الخطأ ونقل الأوهام، لأنه هو المصدر الوحيد للمعرفة أو العلم، أما باقي القوى فإنها تأخذ منه حسب القرب أو البعد منه، " والحس أشرف من العقل لما فيه من الإطلاق فله السراح بالاستحقاق وإنه المحيط بما تعطيه الأوهام وإن أحالته الأحلام، و العقول قاصرة عن نسبة الوجود إلى هذه الأعيان المتخيلة ".

إدراك الحس للأشياء إدراك مباشر و بدون واسطة، لا يقلد غيره وإنما يحاكي الشيء كما هو أو كما يتبدى له، ينقل دون أن يتصرف، يشاهد دون أن يعاند لأنه شاهد، كما أنه لا يدعي ما ليس في قوته و قدرته، لذلك يسلم من الوهم والوقع في الغلط أو الخطأ، مادامت الأوهام قد تطال الأحكام العقلية، لأنها هي من يدخل عليها الغلط والخطأ " وإنما المذهب الصحيح إنما العين لا تخطيء أبدا لا هي ولا جميع الحواس، فإن إدراك الحواس الأشياء إدراك ذاتي ولا تؤثر العلل الظاهرة العارضة في الذاتيات ." لا ندرك الذاتيات إلا ذاتياً، والحس من القوى التي لا تخطيء ذاتياً حتى وإن اعترضتها صعوبات. من هنا أهمية الحس في تشكيل معرفة وتكوين رؤية صادقة بالعالم والوجود فلا " يعقل بالعقل ولا بالحس إلا الوجود الذي نستند إليه في وجودنا ."إذن، تقدم لنا المعرفة الصادقة رؤية حقة وحقيقية بالوجود، بمساهمة

كل من العقل الذي لا يخطئ والحس في تشكيل معالم هذه الرؤية للوجود.

ب – حدود فكرية

رغم سيادة العقل و قدرته على السيطرة، إلا أنها سيادة في الظاهر، لكن في تحصيله للمعرفة يرتكز على غيره، أي افتقاره في الباطن، لأن ذلك من طبيعته وماهيته مادام "العقل خلق ساذجاً ليس عنده من العلوم النظرية شيء"ومن القوى التي يعتمد عليها كثيراً، الفكر، والذي يعتبره ابن عربي شقاء أبدي لازم الإنسان في وجوده، لأن قدر الإنسان هو أن يفكر، وفي تفكيره شقاء في حياته، يرهق الفكر الإنسان، ويقلق وجوده، يجعل حياته هشة، ومؤسسة على أوهام واقعية، لأن الفكر يوصل إلى ذلك في معظم حالاته ووضعياته التأملية " غير أن الله تعالى ابتلاه ببلاء ما ابتلى به أحد من خلقه إما لا يسعده أو يشقيه على حسب ما يوفقه إلى استعماله، فكان البلاء الذي ابتلاه به أن خلق فيه قوة تسمى الفكر، وجعل هذه القوة خادمة لقوة أخرى تسمى العقل وجبر العقل مع سيادته على أن يأخذ منه ما يعطيه ولم يجعل للفكر مجالا إلا في القوة الخيالية . "إذن، هناك سيادة في الظاهر وأخذ في الباطن. لهذا الغرض يرفض ابن عربي معظم المعارف التي يتم تحصيلها من طريق الفكر ويشكك فيها، مما جعل علاقته مع الفكر متوترة إلى أقصى حد، بل أكثر من ذلك هو أشد الرافضين والمنتقدين له. لماذا هذه العداوة للفكر وهذا الرفض بهذا الشكل ؟

يتوجه ابن عربي بالنقد إلى ما تبنى عليه المعارف، أي أنه لا يتوجه إلى المدلول ولا إلى الدال، و إنما يتوجه إلى الدليل، الذي يبنى عليه المدلول بإدخال الدال في عملية التدليل والذي يقوم بهذه العملية هو الفكر، لذلك نجد هذا الاهتمام الكبير بالفكر، لأنه الأصل في ايصال العقل إلى تحصيل المدلول. إذن، حتى و إن كان ابن عربي عرفاني في توجهه، إلا أنه منطقي في تعامله مع طرق تحصيل المعرفة، وتقفي مسارها من الأوائل أي تمحيص المعطيات إلى إدخالها في تركيب الدليل وصولاً إلى النتيجة أو المطلوب. ما يهم ابن عربي في هذه العملية هي تلك النقلة من الدال إلى المدلول، والتي ترتبط بالدليل خصوصاً.

تعتمد المعرفة أو العلم أو ما يمكن تسميته بالحكم العقلي أو المدلول، على ما يركبه الفكر من دليل، لهذا يشدد ابن عربي ويركز اهتمامه على الفكر وكذلك العقل. لا يمكن انكار دورهما، لكن مهمتهما عليها أن تكون على درجة عالية من الدقة والصرامة و التزام الحدود وتقييد الممارسة حتى لا يكون هناك زيغ أو خروج عن المطلوب. ما يرغب فيه ابن عربي من كل هذا هو تقويم الأفكار والأحكام وفق ضوابط وقواعد صارمة تؤول بنا إلى معرفة صادقة ناتجة عن فكر صحيح لا فاسد وعن عقل سديد، لأن "علم العقل: وهو علم يحصل لك ضرورة أو عقب نظر في دليل بشرط العثور على وجه ذلك الدليل وشبهه من جنسه في عالم الفكر الذي يجمع ويختص بهذا الفن من العلم ولهذا يقولون في النظر منه صحيح و منه فاسد".

يأخذ الفكر من الحس مجموعة من الانطباعات والادراكات الحسية، لكي يؤلف بينها، بواسطة تلك الأوليات العقلية أو البديهيات، و هذا الأخذ يؤدي بالفكر إلى السقوط في تعدد الوسائط، لأنه بين طرفين الحس والعقل، يأخذ من الحس كما يأخذ من العقل، إلا أنه لا يقتصر عليهما وإنما يستطيع أن يأخذ حتى عن الخيال، و في هذا المستوى ينتقل من الأخذ عن العقل والحس، إلى تقديم الدليل له، وذلك بتركيبه للصور الخيالية. إذن، يأخذ الفكر من العقل الأوليات والتي هي بمثابة مبادئ و قواعد للتفكير، لأنه لا يحتوي على مبادئ قبلية ومنطلقات سابقة بها يعمل ويشتغل، بحيث يعطي للعقل أفكاراً في شكل دليل ، يأخذ العقل هذا الدليل فيحكم به على المدلول . إذن " القوة المفكرة إذا جاءت إلى الخيال افتقرت إلى القوة المصورة لتركب مما ضبطه الخيال من الأمور صورة دليل على أمر ما، و برهان تستند فيه إلى المحسوسات أو الضرورات وهي أمور مركوزة في الجبلة، فإذا تصور الفكر ذلك الدليل حينئذ يأخذه العقل منه فيحكم به على المدلول، وما من قوة إلا ولها موانع و أغاليط".

يتموضع الفكر بين وضعيتين مع دورين مختلفين، دور يأخذ فيه من الحس و العقل لكي يجد طريقة في الاشتغال، حتى يعمل على تركيب الدليل للانتقال إلى وضعية من يقدم الدليل العقلي لكي يمارس مهمته و هو الحكم العقلي بناءاً على ما ركبه الفكر. لهذا الغرض يذم ابن عربي العقل من جهة الفكر، لأن الدليل هو من تركيب الفكر و ليس العقل . و هذا الأمر سوف يوصلنا إلى نتيجة مفادها أن " العقل يقلد الفكر ومنه صحيح و فاسد فيكون علمه بالاتفاق فما تم إلا تقليد". وهكذا، يكون الفكر أقرب شيء إلى الإنسان من العقل والخيال و القلب، يعبر عن معاناة الإنسان وقلقه الوجودي والمعرفي، يعبر عن ذلك الجانب السلبي من وجود الإنسان، الفكر لصيق بالإنسان وأكثر تعبيراً عن وجوده الشقي، لأن " أصحاب الأفكار ما برحوا بأفكارهم في الأكوان فلهم أن يحاروا و يعجزوا ".

يعبر الفكر عن لحظة سقوط الإنسان ورفضه لما كان عليه، مع عدم امكانية التجاوز، من هنا مطالبة ابن عربي بوضع الحدود لهذه القوى سواء كانت عقلاً أو فكراً أو حساً، حتى لا نقع ونسقط في التقليد والميتافيزيقا، فالتقليد قانون الأموات حسب ابن عربي، ويمنع الفكر من الدخول إلى الميتافيزيقا، لأنه لا يستطيع أن يتصور ما هو مفارق، مادام يرتبط بما هو واقعي أو حسي، أما ما هو ميتافيزيقي لا يمكن إدراكه دون المرور مما هو واقعي، تجريد الواقع عملية لاحقة تأتي بعد إدراك الواقع، إذ لا يمكن للفكر أن يجرد إلا ما هو واقعي في شكل تصور أو تركيب للدليل، أما ما هو مجرد لا يمكن تجريده أو إدراكه.

إذن ، ما هو مفارق لا يمكن تصوره أو التفكير فيه إلا بعد مروره عبر وسائط أهمها واسطة الحس، ومادام الحس لا يستطيع تجاوز ما هو محسوس، فإن ذلك يؤدي به إلى عدم قدرته على إدراك ما هو مفارق، ومادامت القوى تعتمد على الحس فإنها ترتبط به ولا يمكنها الاستغناء عنه" أما القوة المفكرة فلا يفكر الإنسان أبداً إلى في أشياء موجودة عنده تلقاها من جهة الحس و أوائل العقل، ومن الفكر فيها في خزانة الخيال يحصل له علم بأمر بينه وبين هذه الأشياء التي فكر فيها مناسبة ولا مناسبة بين الله وبين خلقه، فإذن لا يصح العلم به من جهة الفكر ولهذا منعت العلماء من الفكر في ذات الله تعالى " . لكن، رغم عدم امكانية العلم "بالله" من طريق الفكر إلا أن ابن عربي يطالبه بالدفاع عنه من خلال قوله: "وعلم النور على قسمين: علوم كشف، وعلوم برهان بصحيح فكر، فيحصل له من طريق البرهان ما يرد به الشبهة المضلة والقادحة في وجود الحق وتوحيد أسمائه وأفعاله، فالبرهان يرد على المعطلة، ويدل على إثبات وجود الإله وبه يرد على أهل الشرك". والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، كيف يمكن اثبات ما لا يمكن تصوره أو البرهنة و العلم به ؟

لا يستطيع الفكر العلم "بالله" "وهو هنا ما يخطر لمن نظر في توحيد الله من طلب وماهيته حقيقته و هو معرفة ذاته التي ما تعرف، وحجر التفكير فيها لعظيم قدرها، وعدم المناسبة بينها وبين ما يتوهم أن يكون دليلاً عليها فلا يتصورها وهم و لا يقيدها عقل"، ولكن عليه أن يدافع عنه و يثبت وجوده ويرد على ما يمكن أن يؤدي إلى الوقوع في الشبهات و التلبيس" ونمنع من الفكر جملة واحدة لأنه يورث التلبيس وعدم الصدق."نطالب الفكر بالدفاع عما لا يمكن أن يعلمه أو يتصور، مع العلم أنه هو من يؤدي إلى ذلك. وهكذا، نحاول فهم هذا الاهتمام الكبير من طرف ابن عربي بالعقل والفكر، لأن لهما أهمية كبيرة في توجهاته، بحيث لكي يصل إلى مطلوبه وغايته عليه أن يزيل ما يمكن أن يحول دون ذلك، و أهم عقبة تواجه المنهج العرفاني هما العقل و الفكر. إذن ، هل يمكن أن نفسر هذا الاهتمام الكبير بالعقل و الفكر بأنهما يهددان مشروع ابن عربي ؟ لذلك حتى يضفي المشروعية بل أكثر من ذلك الأحقية والأفضلية عليه أن يظهر غيره بمظهر السلبي وغير الايجابي.

تحويل الوجود إلى فكر وعقل، أي تحويله إلى أخطاء وتراكم لسلسلة من المغالطات، و تحديد الوجود بالفكر يحوله إلى مجرد تاريخ للفكر، لذلك لا يمكن أن يعبر الفكر عن روح الوجود الذي يطمح إليه الإنسان وكذلك العقل. نحن نعيش في واقع ميت مجر من كل روح، ولا يزال الإنسان يبحث عن روح هذا الوجود، و روحه، هو الإنسان، ليس الإنسان المفكر ولا العاقل وإنما الإنسان الكامل، واقع قادر على قبول الإنسان الكامل، وما دام الواقع لا يعبر عن هذا الإنسان فإنه محكوم عليه بالزوال أو استمرارية الموت وإمكانية العدم.

معرض الكتاب وإسهاماته في إيجاد جيل قارئ

بقلم / د. إسحاق بن عبد الله السعدي

لا شك أن حركة الفكر وإنتاجيته مقياس لتقدم الأمة ونهوضها ودليل على رقي وعيِّها، والارتباط بين المعرفة والحضارة يظهر بجلاء عندما تتجسد المعرفة في معطيات حضارية ومعالم شاهدة تسفر عن مدى ما وصلت إليه الأمة في سلم العلم والمعرفة من خلال توظيفها في عالم الواقع ثم إن للأمم المتحضرة وسائلها المتعددة في نقل المعرفة ونشرها واستثمارها ومن أهم تلك الوسائل إقامة معارض الكتب فعن طريقها يتم التواصل الثقافي عالمياً ومحلياً.

ما يرى من ازدياد الاهتمام بالكتاب وعرضه يحمل في طياته دلالات واضحة على مدى ازدهار الحركة الثقافية وأن قوام ذلك إيجاد جيل قارئ يعي قيمة العلم والمعرفة في تكوينه الذاتي وثقافته الإيجابية وأن معادلة النجاح في الحياة تتأسس أول ما تتأسس عليه على العلم النافع والعمل الصالح وعلى الرغم من الزخم المعرفي الذي تقدمه وسائط المعرفة الجديدة بسرعة ويسر وتنوع أخاذ فلا يزال الكتاب هو الأصل وهو الأهم وينبغي أن يكون كذلك.

إن معرض الكتاب بما يشتمل عليه من التنوع في أوعية المعرفة وجدة في العطاء وثراء فكري يمثل ظاهرة وعي وإفراز فكر وجدلية معرفة وعقد حوار حضاري يسهم في التنمية والنهوض بالوطن والأمة. والأمم المتحضرة تدرك أهمية الكتاب في تثقيف أبنائها وتنمية معارفهم ومهاراتهم، وإيجاد جيل قارئ يُسهم بالمعرفة ويبحث عنها ويحرص على الرقي في مراتبها كي يحصل منها القدر الكفيل بإنارة فكره وإشباع نهمه الفطري للعلم والمعرفة وتزداد الحاجة إلى ذلك في مواجهة التسطيح الثقافي الذي تشيعه ثقافة الاستهلاك والاستهداف وما نجم عنهما من الجهل المركب الباعث على الحيرة والريبة والشك على حد تعبير لويس باستور : (قليل من العلم يبعدك عن الله لكن كثيرة يقربك إليه) لكي تحقق المعارض الفائدة المرجوة منها فلا بد أن يصاحبها ما يُحفز على الاستفادة منها كإقامة الندوات حولها ليتم في خلالها عرض الجديد والتعريف بحركة التأليف ونقدها وتقويمها كذلك إسهام الوسائل الإعلامية في التعريف بهذه الحركة كما أن مما يُسهم في توسعة نطاقها وتعاظم أثرها في الجيل حسن التنظيم وإجادة العرض ومناسبة الزمان والتنوع في المعروضات وتقديم الجديد في كل اختصاص. كما أن استخدام الوسائل الدعائية إحدى السبل المهمة في تقريب المعرفة والتشويق إليها ولفت الانتباه للعطاء المتميز والجديد ، ومن ذلك على سبيل المثال استخدام العروض السينمائية لإبراز العطاء المتميز في حل المشكلات والإجابة على التساؤلات وإرواء التطلعات وتحقيق الإبداع والتميز.

وإذا كانت بلادنا التي اتسمت في مسارها الحضاري الواعد بخصيصة السبق والمسارعة في كل ما من شأنه الرقي بأبنائها ومواطنيها فإنها تولي معارض الكتاب عناية واهتمام ولا أدل على ذلك من إقامة معرض الرياض الدولي للكتاب الذي أقيم قبل أسابيع من كل عام وتشارك فيه دور النشر المحلية والإقليمية والعالمية مع ما يصاحبه من محاضرات وندوات ولقاءات وحوارات وما تفتق عنه من أفكار إبداعية تدعم الإشادة بالكتاب والمحافظة على ألقه ومكانته لئلا تنال منها تلك الوسائط الحديثة ولا سيما أنها ذات جاذبية وإغراء وسعة انتشار وقوة تأثير ..

المكتبة الكونية

حامد بن شيخ العيدروس

اهتم الإنسان منذ القدم بحفظ وتوريث علومه، فالحضارات القديمة كالفراعنة مثلاً، كان للكتابة على ورق البردى وألواح الطين وأنواع الحجارة قيمة عظيمة لديهم، فهي التي خلدت لهم الذكر واختزلت جوهر علومهم. فبالرغم من عوامل التعرية الجغرافية والزمانية والفكرية التي عصفت بتلك الحضارات، إلا أنه أمكن للبشرية اليوم أن تستعرض بعضاً من سجلاتهم وتستلهم منها العبر. وحينما نتأمل تتابع الأزمنة وتغير معالم الأمكنة ونلحظ التراكم المعرفي المصاحب لذلك، نجد أن إنسان اليوم قد ورث عدداً ضخماً من المعارف، وأضاف هو كذلك عدداً كبيراً منها إلى قالب المعرفة. لذلك، فعلى إنسان اليوم أن يكون أكثر حكمة في تعامله مع المعلومة أخذاً وعطاءاً وتصنيفاً وتقييماً وتوريثاً.

لماذا يقرأ الإنسان ويكتب؟

الجواب على سؤال كهذا من الممكن أن يختزل في كلمة واحدة ألا وهي الحاجة. فإذا ما استشعر الإنسان حاجته لأمر ما، فسرعان ما تجده يهرع ويبذل كل ما بوسعه ليظفر بمطلوبه. فإذا احتاج الإنسان إلى الأمان مثلاً، فأمامه ثلاث خيارات، فهو إما أن يجتهد بنفسه ليظفر بالأمان، وإما أن يسأل إنساناً آخر لديه تجربة أو دراية بالأمان ليهديه إليه، وإما أن يقرأ عن الأمان في سطور الكتب. وإذا احتاج الإنسان إلى الدواء، فهو إما أن يجتهد بنفسه في اكتشاف الدواء أو يسأل طبيباً أو يقرأ ما كتبه الأطباء. وكذلك الحال مع حاجة الإنسان للأكل والشرب والمسكن وعلاقته مع الإنسان الآخر ومع المخلوقات من حوله. فليس من الحكمة أن يجتهد الإنسان في أمر قد عرفت نتيجته سلفاً، فلا أحد يجرؤ على شرب السم ليثبت أنه سام، فقد كفاه أبوه بالمعلومة تلك أو كفته كتب الأحياء والطبيعة، ويبقى للتجربة مكانها اللائق بها.

ويكتب البشر أيضاً لحاجتهم لما يكتبه الآخرون، فهم يكتبون اليوم ليكتب لهم غداً، ويكتبون ليصحح لهم، ويكتبون ليحفظوا علومهم ويخلدوا تجاربهم للقادم من أجيالهم. فالكتابة هي شعور بالمسؤولية تجاه النفس والمجتمع والأرض والتاريخ، وهي أحد المحركات الأساسية لأي عملية تنموية.

مستويات القراءة والكتابة

للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالانسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توحي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ آخر معان أخر.

ومن صور الكتابة أيضاً، ما يكتبه الإنسان للكون من خلال سلوكه. فسلوكه كلمات، ومعتقداته ومبادؤه هي بمثابة معان كامنة وراء تلك الكلمات.

والصورة الثالثة هي كتابة الإنسان للإنسان وقراءة الإنسان للإنسان، وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان والحال، فمنهم من كتب على الأحجار وعلى أوراق الأشجار، ومنهم من نصب تذكاراً حوى معاني وأفكار، ومنهم من كتب في صدور رجال حملوا أمانة نقله إلى مستحقيه متعهدين بضمانة حفظه، ومنهم من كتب بسلوكه دون أن ينطق أو يكتب حرفاً واحداً.

واليوم لم يعد الكتاب التقليدي والرسوم التشكيلية والمجسمات والأفراد هي الصورالوحيدة للمعلومة، بل أضاف البشر إليها الصور المتحركة (الفيديو) والعوالم الافتراضية والتي تعتبر قسماً جديداً في مكتبة الكون لم يعهده آباؤنا وأجدادنا قبل عشرات السنين.

لمحة عن عن مكتبة الكون اليوم

إن الإنسان والكتاب هما أهم أوعية للمعرفة. والإنسان قد يكون أكثر الوعاءين كفاءة ومذاك إلا لأنه يستوعب اللفظ والمعنى معاً وهو مقصود العلم ومنه تكون ثمرته. فمن الناحية الكمية، وقبل 300 عام من الآن كان عدد البشر الذين يسكنون كوكب الأرض يتفاوت حول المليار نسمة، وقبل خمسين عاماً تقريباً بلغ عددهم ثلاث مليارات نسمة واليوم يبلغ عددهم ما يزيد على السبع مليارات نسمة. ففي خلال 300 عام تقريباً تضاعف عدد البشر ستة أضعاف. نصفهم اليوم يتركزون في الصين والهند وأمريكا واندونيسيا والبرازيل على التوالي. وأما عدد الكتب، فإن شركة جوجل قدرته بـ 129 مليون كتاب في 2010، يتركز جزء كبير منها في الغرب والشرق.

وأما من الناحية النوعية فكل بحسبه، لأن النوعية تحددها الحاجة، والحاجة تحددها فلسفة الإنسان ونظرته للكون. فمن الممكن أن يعثر الإنسان على ضالته من خلال كلمة واحدة أو كتاب واحد أو شخص واحد. وأحياناً وبناء على نظرة مختلفة للكون قد يضطر إنسان آخر إلى أعداد كبيرة من الكتب والأشخاص.

هناك عدد كبير من معارض الكتب التي تقام في الشرق والغرب يباع من خلالها كتب في مجالات مختلفة. إن نسب المبيعات في مثل هذه المعارض تعكس واقع المجتمعات. فمثلاً إذا كان سبعين بالمئة من الكتب التي تباع في معرض ما في مكان من العالم متعلقة بأمراض القلب، فإنه يفهم من ذلك أن حاجة هذا المجتمع تدور حول أمراض القلب، فهو إما أنه يواجه تحديات في هذا الميدان أو أن لديه تطلعات متعلقة به. وإذا كانت مثل هذه النسب تعكس حاجة المجتمعات أحياناً، إلا أنها قد تفيد كذلك بجهل المجتمع لحاجته، وإذا جهل مجتمع ما حاجته فإن ذلك مؤشر على ركوده المعرفي liquidtiy trap. قد نستغرب أحياناً إننا لا نعرف حاجاتنا، وما ذاك إلا لان الحاجة تستتر خلف الترف والجهل المركب.

سلوكيات حسنة وأخرى سيئة داخل أروقة المكتبة

من السلوكيات الحسنة أن يدرك الإنسان و المجتمع أبعاد هذه المكتبة زماناً ومكان وكماً ونوعاً، وأن هذا الإدراك يسهم إيجاباً في الاستفادة المثلى من هذه المكتبة. ومن السلوكيات الحسنة كذلك أن يقف الإنسان والمجتمع في المكان الصحيح داخل أروقة المكتب وبما يتناسب مع حاجتهما أولاً ومع الوقت والمكان.

وأما السلوكيات السيئة، فأبرزها أن يدخل الإنسان إلى هذه المكتبة وهو جاهل بحاجته فيتيه فيها ويعيق من كفاءتها. ومنها أيضاً الوقوف في المكان الخاطئ الذي لا يتوافق مع حاجة المجتمع. ومنها أن يعلي صوته نقداً وشتماً فهذا لا يتناسب مع معنى كلمة مكتبة لإنها تستلزم الهدوء.

وعلى مر العصور، فإن الفرق بين المجتمعات هو في المشاركة الفاعلة في هذه المنظومة إبداعاً واستدعاءً، فالكتابة باختصار هي آلية استيداع للمعلومة في مكتبة الكون ليستفيد منها إنسان اليوم وإنسان الغد وإنسان الشرق وإنسان الغرب، والقراءة في المقابل هي آلية استدعاء لتلك المعلومة. فهناك مجتمعات لديها حس التمييز والتقييم لكل ما تضيفه أو تستدعيه من هذه المكتبة، مراعية في ذلك نمو الإنسان قلباً وعقلاً وجسداً، وحفظه قبل أن يولد وأثناء حياته وبعد وفاته، وفي المقابل، هناك مجتمعات غير مميزة لسلوكها داخل أروقة هذه المكتبة الكونية العامرة، فتجدها تائهة لا تحسن قراءة التصنيف العشري المستخدم في أبجديات هذه المكتبة. فكل أمة لها رصيد معلوم في سجلات هذه المكتبة تتغير نسبته إلى مجمل ما هو مستودع في المكتبة بتغير الأحوال والأزمنة. فالفراعنة مثلاً كانوا يوماً ما يمتلكون رصيداً ضخماً في هذه المكتبة، وفي يوم ما كانت أمم في الشرق وفي الغرب يمتلكون مثل ذلك، وفي خلال الثلاثمائة سنة الماضية ارتفع عدد سكان الأرض ارتفاعاً ضخماً وتغيرت بذلك أحوال الأرصدة في سجلات مكتبة الكون.

وأخيراً، فإن القراءة والكتابة هي انعكاس لصورة الحياة التي يتفاعل فيها الإنسان والحيوان والنبات والجماد، فإذا كان في مكتبة الكون صفحات بيضاء، فهذا يعني أن هناك جودة في الدورة الحياتية بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والكائنات من حوله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

(1) القرار

د.موسى جاب الله مصطفى فايد

القيادة هي فن اتخاذ القرار

ولكن هل يمكن لقرارك أن يكون خاطئًا؟

الجواب: نعم؛ فليس هناك إنسان معصوم من الخطأ سوى رسول الله– ﷺ – فيما بلّغ عن ربه فقط، وما خلا ذلك فهو معرض للصواب والخطأ. فما أسباب القرار الخاطئ؟

لا تخرج أسباب القرار الخاطئ عن واحد أو أكثر من الأسباب الآتية:

1 - **إرهاق الذهن**

الذهن المرهق لا يعمل بكفاءة، وإرهاق الجسد يؤثر على التفكير. فأرِح جسدك وذهنك قبل اتخاذ قرار حاسم.

2 - **المشكلات الشخصية**

يجب أن تعزلها عن تفكيرك في عملك؛ لأنها مؤثر خارجي قوي يقلل من فرص سلامة القرار.

3 - **طلب المثالية الزائدة**

كثير من المؤسسات والشركات التي تتبع نمطًا (روتينًا) بطيئًا لا تتخذ قرارًا إلا بعد الاطمئنان إلى صوابه 100% وأنه نموذجي 100%؛ فتفوتهم فرص رائعة نتيجة البطء في اتخاذ القرار طلبًا للمثالية.

4 -**الغضب**

فهو قادر على وضع غشاوة على عينيك، فإما أن تعميها عن رؤية الحقيقة، أو على الأقل تشوّش عليها رؤية الحقيقة، أو قد ترى حقائق مغلوطة تكون سببًا لقرار خاطئ، والصواب في حالة الغضب ألاّ تُصدر قرارًا بل تصمت.

وخذ عني هذه الحكمة (إنك إن تصمت خيرٌ لك من أن تندم).

5 -**اتباع الهوي**

إن اتباع المزاجية وترك الأساليب العلمية خصوصًا في تقييم الأداء سيؤدي إلى قرار خاطئ بالتأكيد. والحق لا يكون حقًّا لمجرد أنك تؤمن به، والباطل لا يكون باطلاً لمجرد أنك لا توافقه، ولا عيب في أن تستشير معاونيك ومستشاريك للوصول إلى قرار صائب؛ فاتّباع الحق خير من التمادي في الباطل القائم على اتباع الهوى.

6 - **الوقت الخطأ**

إنك إن تأخرت عن الوقت المناسب لاتخاذ القرار فقد تفوتك فرص عظيمة؛ فالتسويف والتأخير قد يؤدي إلى أن يكون قرارك عديم الفائدة التي اتخذ من أجلها، كما أن التسرع في اتخاذ القرار قد يسبب ثورة عارمة عليك إن لم تدرس آثاره جيدًا وتقيّمها. والخلاصة أن القرار الصائب لا بد أن يتّخذ في الوقت المناسب دون إسراع أو تأخير.

7 - **الخوف والرهبة**

أكثر أنواع الخوف زيارة لنا هو الخوف من تجارب سابقة فاشلة، تعمّم على التفكير سحابة من الرهبة والخوف. ولكن تسلّح بالمعرفة والأدوات العلمية والعملية، وخطّط جيدًا، وامضِ إلى ما خططت فيه بلا خوف وبلا رهبة.

بعد أن عرفنا أسباب القرار الخاطئ من باب (علمت الشر لا للشر ولكن لتوقّيه، ومن لم يعلم الشر يقع فيه)،

وكما أن الطهور مفتاح الصلاة، والصبر مفتاح الفرج، والقرار مفتاح القيادة، فإليك فيما يلي:

المفاتيح التسعة لاتخاذ قرار قوي وفعال

1 - تيسير العمل

إنما جعلت القرارات لتيسير العمل، فلا بد لها من المرونة ومواكبة العصر وما استجد من أحداث. فلا يُعقل مثلاً التمسك بمسك الدفاتر المحاسبية والتقيد بها في عصر صار الحاسب الآلي وبرامجه موفّرًا للوقت ويتميز بالدقة.

2 - اجعل قرارك أسلوبَ حياتك

فتعوّدك على إدارة حياتك بأسلوب اتخاذ القرار - ولو في الأمور البسيطة - يجعل قرارك قويًّا وفعّالاً، وذلك خير من أن تتخذ القرار لأول مرة، ولم تعوّد نفسك عليه، فيكون عندئذٍ أكثر مؤونة من التمرس على ذلك.

3 - جرّد الحق من المشاعر

لا تجعل الحب والكره يتحكم في حكمك على الناس أو يؤثر في قرارك؛ لأن طول الفرد أو قصر قامته مثلاً لا يؤثر في أدائه عمله، كما لا يؤثر في عمله جمال خلقته أو دمامتها. فاترك الحب والكره كمشاعر شخصية لك تجاه الناس، واجعل المقاييس العلمية هي أساس التقييم واتخاذ القرار؛ ليكون قرارك صائبًا وفعالاً.

4 -الاستشارة

كان يرسم جدولاً من عمودين: أعلى الأول نعم، وأعلى الثاني لا، كما يلي:

نعم	لا
1-	1-
2-	2-
3-	3-
4-	4-
5-	

حقًّا لا خاب من استشار ولا ندم من استخار، ولكن انتبه فيجب أن تستشير مَن تستفيد بخبرتهم وعلمهم ورجاحة عقلهم، فيكون قرارك بعد الاستشارة قويًّا وفعالا.

5 -انظر إلى المشكلة من وجهة نظر أخرى

تذكر دائمًا أن لكل مشكلة ثلاث وجهات نظر: أولها وجهة نظرك، وثانيها وجهة نظر شخص آخر، وثالثها وجهة النظر السليمة. ولكي يكون قرارك قويًّا وفعالاً لابد أن تعرف وجهات النظر الأخرى؛ لتستخلص الوجهة السليمة.

6 - تذكّر أنك لست على صواب دائمًا

قد يوهمنا الوصول إلى المراكز القيادية أننا على صواب دائمًا، فنصل عندئذ إلى الغرور المانع من تقبّل وجهات نظر غيرنا، بل يجب علينا التحرر من الغرور والاعتداد بالرأي؛ حتى نتّجه بقراراتنا الصائبة إلى الوجهة السليمة.

7 - تنفيذ القرار

القرار لا يكون قرارًا إلا بعد تنفيذه، أما ما يخزن في الأدراج والملفات فهو غير ذي قيمة. فإذا عزمت فتوكل على الله، ونفّذ قرارك دون إبطاء.

8 - مراقبة الذات

لتكن لك عين على قراراتك كلها؛ فتبرز الفوائد من القرارات الصائبة للاستفادة المستقبلية منها، وتحلل القرارات الخاطئة وأسبابها كي لا تقع فيها مرة أخرى.

9 -متابعة القرار

إن متابعة تنفيذ القرار لها أهمية كبرى لا تقل عن اتخاذ القرار ذاته، وذلك يمكّن من معالجة المشكلات الطارئة التي قد تعوق تنفيذ القرار أو تؤخره.

جدول فرنكلين لاتخاذ القرار السريع

قد تضطرك الظروف إلى اتخاذ قرار سريع وحاسم في وقت وجيز، وإليك طريقة بنيامين فرانكلين - وهو من أبرز مؤسسي أمريكا – في اتخاذ القرارات السريعة.

فيكتب في العمود الأول إيجابيات اتخاذ القرار، ويكتب في العمود الثاني السلبيات المترتبة على اتخاذ القرار، ثم يعدّ كم كتب من الإيجابيات وكم كتب من السلبيات؛ فإذا كانت الإيجابيات أكثر اتخذ القرار، وإذا كانت السلبيات أكثر أحجم عن القرار.

ولا تنسَ أن هذه الطريقة تتطلب تركيزًا شديدًا، وكلما أخذت وقتًا أطول كان ذلك أدعي لتجميع أكبر عدد من الإيجابيات والسلبيات، والتفكير فيما يجب عليك عمله.

النشر الذاتي.. بديل الكُتاب للوصول إلى القارئ دون دار النشر

لم يكن ممكناً في السابق أن تصل الكتب إلى القراء دون مرورها عبر بوابة دور النشر. لكن، ومع ظهور الكتب الإلكترونية وإمكانية تسويقها ذاتياً من طرف كُتابها، أصبح ذلك ممكناً، بل وأصبحت هذه الكتب تلاقي رواجاً كبيراً.

إينا كورنر، كاتبة قصة ألمانية مبتدئة، حاولت إيصال أول قصة كتبتها للقراء عبر الطرق التقليدية. أي من خلال إيجاد دار للنشر تتكفل بذلك. فبعد انتهائها من كتابة قصتها في بداية عام 2009، بعثت بمسودتها لأكثر من دار نشر للاطلاع عليها. لكن النتيجة كانت مخيبة للآمال. فبعد فترة انتظار طويلة، توصلت كورنر برسائل دور النشر التي رفضت التكفل بطبع قصتها.

وفي منتصف عام 2011، علمت كورنر بوجود إمكانية لنشر الكتب بطريقة ذاتية من خلال موقع أمازون (Amazon) الإلكتروني لبيع الكتب. فقامت بجمع المعلومات اللازمة، وصممت، بمساعدة أحد أقربائها، غلافاً لقصتها. ثم قامت بتحميل مُحتوى القصة ذات البعد العاطفي الخيالي، والتي اختارت لها عنوان (ضوء القمر) (MondLichtSaga). وكانت هذه الخطوة ناجحة بكل المقاييس، كما توضح الكاتبة إينا كورنر بقولها: «بعد مرور 14 يوماً من ذلك، كنت قد بعت 45 نسخة. وكنت فخورة بذلك». لكن الانطلاقة الحقيقية جاءت مع قدوم فترة التسوق التي تسبق أعياد الميلاد. حيث بيعت حوالي 1500 نسخة من قصة (ضوء القمر).

النجاح بفضل شبكة الإنترنت

في السابق، كان يلزم التوفر على كثير من المال لطباعة الكتب. أما الآن، فتكفي بعض النقرات على شبكة الإنترنت لإضافة كتاب إلكتروني (E-Book) جديد إلى قائمة الكتب المتداولة إلكترونياً. كما يمكن للقراء الحصول على النسخة المطبوعة لكل كتاب إلكتروني بحسب الطلب. ولا تعني سهولة النشر التي أصبحت في متناول الجميع أن سوق القراءة قد أُغرقت بالأدب عالي الجودة. لكن ومع ذلك، فإن جودة الكتب التي تنشر ذاتياً في تصاعد مستمر. وهو ما ينطبق أيضاً على حجم المبيعات التي تعرفها. وهذا ما أكده فولفغانغ تيشلر، أحد أعضاء الفريق الساهر على موقع literaturcafe.de الذي يهتم بالأدب الإلكتروني. ويقول تيشلر «يتزايد عدد الكتاب الناجحين الذي يعرفون حق المعرفة كيف يكتبون ولمن يكتبون وكيف يتواصلون».

الكاتبة إينا كورنر صاحبة قصة (ضوء القمر) التي قامت بنشرها عبر موقع أمازون بطريقة ذاتية

فرص جديدة للكتاب والناشرين

وتعتبر إينا كورنر واحدة من هؤلاء الكتاب الناجحين. وقد نشرت الجزء الثاني والثالث لقصتها (ضوء القمر) بعد النجاح الذي حققه الجزء الأول. وعرف الجزآن الأخيران إقبالاً جيداً، لدرجة أنها قررت التفرغ للكتابة إلى جانب الاعتناء بأسرتها. وتسعى الآن كثير من دور النشر إلى التعاقد معها. وتوضح كورنر أن هناك «دور نشر أجنبية طلبت شراء حقوق القصة لنشرها باللغة الفرنسية والإنكليزية والكورية». هذا بالإضافة إلى اهتمام دور النشر الألمانية بالعمل معها مستقبلاً من خلال التكفل بنشر أعمال أدبية جديدة. وحصلت كورنر في آذار/مارس 2013 ضمن فعاليات معرض لايتبسيغ للكتاب على جائزة (الناشرين الذاتيين).

موقع نيو بوكس الإلكتروني للنشر الذاتي الذي يتيح للكتاب عرض كتبهم

تواصل الكتاب مع القراء

ورغم كل الإمكانيات التي تتيحها فرص النشر الذاتي، تبقى دور النشر هي العنوان الأول بالنسبة لكثير من الكتاب. ويرجع ذلك إلى أن بعض الأنواع الأدبية دون غيرها هي التي تعرف النجاح بالوصول إلى القراء عن طريق النشر الذاتي، مثل القصص الخيالية والروايات البوليسية التي تدخل ضمن الأدب الترفيهي الذي يعرف استهلاكاً كبيراً وسريعاً في نفس الوقت. وبغض النظر عما إذا كان الكتاب متعاقدون مع دور نشر تتكفل بنشر كتبهم أم يقومون بذلك بصفة ذاتية عبر المواقع الإلكترونية، فإن الكتاب مضطرون في الوقت الحالي لتسويق أنفسهم بأنفسهم. لذلك يتخذ عدداً كبيراً منهم من مواقع التواصل الاجتماعي في شبكة الإنترنت وسيلة لذلك. وهو أمر يبقى أساسياً لتعريف الكتاب بأنفسهم وكتاباتهم وسط زخم الأعمال الأدبية المطروحة في السوق.

تعتبر العملية التحريرية جزءاً رئيسيّاً من عمل مؤسّسة (الديموقراطية الآن) Democracy Now، وهي محطة إذاعيّة يسندها موقع إلكتروني، تملك ميولاً يساريّة، وتلاقي رعاية من شبكة (باسيفيكا) الإذاعيّة في الولايات المتحدة. وحقّقت رئيسة المؤسّسة إيمي غودمان وزملاؤها، قفزات فنيّة وابتكارات في الإعلام الجديد، عبر إنتاجهم موادَّ إعلاميّة ذات تأثير حقيقي. وفي مثال معروف، تعرّضت غودمان للضرب على أيدي عناصر أمنيّة تابعة للحكومة الإندونيسية، بل رُحّلَت من جُزر (تيمور الشرقيّة) أثناء تغطيتها نضال التيموريين من أجل الاستقلال.

وصُنّفت تغطية غودمان باعتبارها (الأفضل) بين التغطيّات الصحافية للصراع في جزر (تيمور الشرقيّة). ولم يكن إخراج المادة الصحافية من إندونيسيا أمراً سهلاً. ففي مرحلة ما، استعانت غودمان بركّاب عاديين يستقلوّن طائرات متّجهة إلى أستراليا، وأعطتهم أسطوانات مدمجة (سي دي) تتضمن أشرطة فيديو مضغوطة. وبعدها، عمد مالك مقهى إنترنت أسترالي إلى إرسال مجموعات أخرى من أشرطة الفيديو، إلى مقر «الديموقراطية الآن» في نيويورك.

ما زالت هذه المؤسّسة تعتمد على الأشكال التقليدية للاتصال، لكنها في الطريق لأن تصبح «حدوداً مشتركة بين عوالم شبكة الـ «ويب» والإعلام العام التقليدي»، وُفق كلمات غودمان.

الجمهور مؤلفاً ومحرراً

ثمة تجربة أخرى مهمة، تعتمد على مفهوم شبكي صرف. فعلى الإنترنت، يشيع مفهوم (ويكي) Wiki وصفاً لعملية جمع بيانات إلكترونية لها صبغة ديموقراطية عميقة.

وفي شباط/فبراير 2004 نشر موقع (ويكيبيديا) Wikipedia، وهو مُكرّس لموسوعة رقميّة مفتوحة ومجانيّة تعتمد على مساهمات مباشرة من الجمهور في محتوياتها، مقالها الـ 500 ألف، وكان من تأليف الجمهور. وحاضراً، تملك الموسوعة ما يزيد على مليون مقال باللغة الإنكليزية وحدها.

تعتبر موسوعة (ويكيبيديا) أحد أكثر التطوّرات سحراً في العصر الرقمي. وفلم تكد تبلغ عامها الثالث، حتى أضحت مصدراً قيّماً، إضافة لكونها نموذجاً للكيفية التي يمكن بها للقاعدة الشعبية في عالم الإنترنت المترابط، أن تنجز أشياء غير عاديّة. من المستطاع اعتبار (ويكيبيديا) نموذجاً للإعلام المستند إلى المشاركة. وبمقدار ما تمثّل امتداداً طبيعيّاً لظاهرة الإنترنت، فإنها تمثّل نموذجاً عن شيء يستحيل صنعه عبر أساليب الإعلام التقليدية.

تتحدى (ويكيبيديا) مجموعة كبيرة من الافتراضات الشائعة، بالأحرى البداهات التي كانت راسخة قبل عصر الإنترنت. وعلى رغم كل شيء، يمكن للمرء أن يتصوّر المرء أنه إذا استطاع الإنسان كتابة شيء ما على شبكة الـ (ويب)، فلربما تعرّض للتدمير على أيدي مخرّبين إلكترونيّين باتت الإنترنت تغص بهم. ولا شك في أن الحروب الملتهبة حول محتوى المقالات، بمعنى الصراعات التي لا تنتهي على المُلكيّة الفكريّة للنصوص، كفيلة بأن تحبط حتى أكثر النيّات إخلاصاً. وثمة من يفكر بأشياء (بديهيّة) من نوع أن المقالات التي يكتبها هواة هي هراء خالص! ولكن الطبيعة المفتوحة لموقع (ويكيبيديا) برهنت على أنها أعظم مواردها على الإطلاق، بل برزت كمصدر لسيول من المواد التي تتمتّع بالصدقيّة.

وبصورة عامة، تميل مقالات موسوعة (ويكيبيديا) إلى استخدام نبرة محايدة. وعندما يكون الموضوع مثيراً للجدل، تشرح وجهات النظر المختلفة، إضافة إلى مجموعة من الحقائق الأساسيّة. وعندما يكون بوسع أي شخص تعديل ما كُتِبَ تواً على الموقع، تصبح هذه النزاهة أمراً جوهريّاً.

ويستمد موقع (ويكيبيديا) القوة من متطوعيّن يتعاملون معه، وهم يرصدون مواده، ويعملون على مكافحة أفعال التخريب الإلكتروني. وعندما يعلم المخرّبون أن شخصاً ما يصلح التلف في غضون دقائق معدودات، ويحول ذلك دون رؤية العالم لما أراده المخرّبون، يميل الأخيرون للشعور باليأس كما يعمدون غالباً إلى الانتقال للعمل على أشياء تكون أكثر ضعفاً من (ويكيبيديا).

ولا يعني ذلك القول إنه لا تحدث اختلافات في الرأي، أو أن العمل في (ويكيبيديا) يسير على أكمل وجه. لكن، في أغلب الأحوال، يحاول محرّرون في (ويكيبيديا) توجيه المنازعات على مسار يحقّق نتيجة أفضل في نهاية الأمر. وهناك صفحات تتضمن مناقشات لمحتويات (ويكيبيديا) تظهر فيها أحياناً بعض الآراء (المُغرِضَة) حول ما ينبغي أن يتضمنه المحتوى. وفي النهاية، فإنه حتى الخصوم يمكن أن يجدوا أرضيّة مشتركة عبر احتواء الاختلافات والاعتراف بها، الأمر الذي يكسب الموسوعة اتساعاً يكبر باستمرار. في المقابل، ثمة نقاشات يصعب في النهاية، تهدئتها والتحكّم بها.

الطريق في استهلاك ... المعلومات

استناداً إلى الصورة الواسعة لمجريات الأمور على الفضاء الافتراضي، من المستطاع التفكير جدّياً بمجموعة واسعة من الخيارات في التعامل معه.

إذ يبدو شبه محتم بناء شبكات إعلاميّة متكاملة الأهداف، بل وفق صورة إعلاميّة واضحة لكل دولة ومجتمع. وترتكز هذه الشبكات في الدرجة الأولى على الصدقيّة والشفافية المعلوماتية، مع ملاحظة أن الأمن الإعلامي والأمن المعلوماتي يشكّلان هدفين أساسيين في الفضاء الافتراضي.

في نفس مُشابه، لا بد من تحليل شبكات التواصل الاجتماعي لرصد المشكلات التي تتداولها، ولصدّ الهجمات الإعلامية في الفضاء الشبكي، وتبديد الإشاعات المغرضة. واستطراداً، لا بد من ولوج العالم الرقمي عبر مكتبات رقميّة ناشِطَة وقواعد بيانات موثوقة، مع التركيز أيضاً على إعادة صوغ وظيفة الإعلام بما يجعله تفاعليّاً مع الجمهور، وهو أمر أساسيّ لمن يسعى الى فهم المطالب الحقيقيّة للناس.

شبكات «متشابكة»!

هناك معطى من الضروري التعمّق في فهمه، يتمثّل في أن الشبكات الإعلامية الرقمية تساهم في ظهور شبكات فرعية ربما تكون فائقة النشاط، تعمل على مستوى الأفراد أو الأحياء أو الشوارع أو التجمعات المهنية. ويؤدي ذلك إلى بناء شبكات أصْيَق فأضيق للتواصل مستقبلاً، ما يضع عبئاً ثقيلاً على جهود الإعلام العام في كسب الجمهور.

والأرجح أن هنالك ضرورة فعليّة لمحو الأمية المعلوماتية، ما يعني ببساطة إعطاء الناس القدرة على تحديد المعلومات التي يمكن استخدامها بشكل فعّال في حل قضية أو مشكلة.

فمن الواضح أن توافر كميات هائلة من المعلومات عبر الإنترنت، يعقّد مسألة الاستخدام الفعال للمعلومات، بل أنه حتى العثور على المعلومات المطلوبة لمواجهة مسألة معيّنة، يصبح تحدّياً صعباً.

وإلى جانب ذلك، يجب أن يكون لدى مستهلك المعلومات وعي معلوماتي متقدّم، لأن ترشيد المواد المتدفّقة عبر الانترنت وتنقيحها وتدقيقها، تعتبر من التحدّيات الكبرى في المجتمعات المعاصرة.